466

HARLEQUIN

روايات أحلام

أميرة الجليد

ساندرا مارتون

www.elromancia.com

مرمورية

أميرة الجليد

أهو زواج مصلحة أم حب؛
كان مجرد ارتباط صوري... حبر على ورق ؛ ظنت برايانا أوكونيل أن العلاقة ستكون مرحلية ... أن المشاعر التى تملأها مجرد وهم ... أن الحب لن يدوم مدى الحياة ... إلا أن جياني كان يحمل أخبارا لبرايانا ، فالمأساة التى أودت بحياة صديقيهما ستجمعهما وتؤجج شوقهما وتجعلهما وصيين على طفلة أصر جياني على أن يتزوجا من أجل مصلحتها ...
من أجل مصلحتها أم من أجل مصلحته هو أيضا؟!

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Books S.A

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Books S.A

العلامة التجارية Harlequin وشعار Joey هما ملك شركة Harlequin Books S.A
وهما مستعملان هنا بترخيص منها

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
The Sicilian Marriage
First Puplished in Great Britain 2005
Harlequin Mills & Boon Limited
©Sandra Marton 2005
Translation © Dar El-Farasha - 2010
ISBN 978 - 9953 - 15 - 483 - 1

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950 - 453115 -1-0961 - بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

١ - أميرة الجليد

كان جياني فيريللي يشعر بالاضطراب.

إنه شهر أيار الحارّ وهو مقيّد في حفل مولد طفل ستيفانو لوشيسي منذ ما بدا له الأبدية.

كانت الغرفة مكتظة والأصوات مرتفعة، ولو فكر أحدهم في جلب طفل آخر بعد فلا يعلم ما سيكون ردّ فعل هذا الرجل الذي تصل ابتسامته إلى ما وراء أذنيه.

بدا وكأن ستيفانو تزوج من قبيلة شديدة الخصوبة. وكأن هذا لا يكفيّ، فقد ظهر منذ ساعة توماسو ماسيني، أقدم أصدقاء جياني مع زوجته، أو زوجته الحامل.

قال جياني في سرّه وهو يصافح صديقه ويقبل زوجته متلفظاً بأرق عبارات الترحيب وأحرّها: «أنت أيضاً تومي؟».

الشقراء المثيرة ذات الساقين الطويلتين كانت مصدر الإلهاء الوحيد لجياني، لكنها بدت فظة مع توجه أنظار الموجودين كلهم إليها.

نظر جياني إلى ساعة يده متنهداً. بضع دقائق فقط تفصله عن الانسحاب بشكل لائق. وحتى انقضاء تلك الدقائق المعدودة سيظل يبتسم ويطلق المجاملات ويتساءل عن السبب الذي دفع بستيفانو للعب ليس دور الزوج وحسب بل الأب أيضاً.

لم يكن لدى جياني شيئ ضد الزواج أو الأطفال، إذ يفترض به يوماً ما أن يستقر ويتزوج، لكن ليس الآن. لا يزال الوقت مبكراً جداً للقيام بهذه الخطوة. بدا كل من ستيفانو وتوماسو سعيدين جداً، لكن

ذلك لم يمنعه من التساؤل عما يدفع رجلين عاقلين للتخلي عن حريتهما وهما في الثلاثينات من العمر.

هل كان ذلك مقدراً لهما؟ أهو القدر ؟

لقد كبر هو وتومي وستيفانو معاً في شوارع مانهاتان. لم تعد طرقهم تتقاطع لكنهم كانوا معاً في اللحظات المهمة.

من الواضح أن الأطفال من الأمور المهمة.

توجه جياني إلى الشرفة الواسعة حيث يستطيع أن يأخذ نفساً عميقاً منعشاً. لا بأس، سيبقى في الخارج يستمتع ببضع لحظات من الهدوء ويفكر فيما إن كان يرغب حقاً في رؤية ليندا الليلة.

ربما كان يجب أن يتبع حدسه ولا يحضر الحفلة. لقد أغرته فكرة إرسال هدية من تيفاني يرفقها باعتذار لعدم تمكنه من الحضور شخصياً... لكن كيف يمكن أن يفعل ذلك، كيف يمكن أن يعتذر عن حضور احتفال ابن ستيفانو؟ لقد فوّت الزفاف بسبب سوء الطقس، لذا حضر شخصياً في النهاية.

الشقراء صاحبة الساقين الطويلتين كانت حاضرة شخصياً أيضاً. قطب جياني جبينه. حسناً لم يكن لديه ما يفكر به، وقد تركت السيدة انطباعاً، انطباعاً سيئاً. وبما أنه لم يكن لديه ما يفعله عاد يفكر فيها تلقائياً.

مهما حاول إبعاد تفكيره عنها لم يتمكن. أخذ جياني ينظر في أرجاء غرفة جلوس لوشيبي الواسعة فرآها تتحدث بحماسة إلى زوجة توماسو وكأنهما صديقان قديمان. ابتسمت ولامست ذراع كارين وضحكت لها في حين لم تتمكن من أن تبتسم ابتسامة صغيرة له.

هذا لا يعني أنه يهتم للأمر، فهي ليست نوعه المفضل. على أي حال، يفضل أن تكون امرأته قصيرة القامة ذات شعر غامق اللون مفعمة بالأنوثة. وليندا تستوفي تلك الشروط كما أنها ممتلئة في حين أنّ الشقراء نحيلة كالقصبة. كانت ليندا تبتسم حين ينظر إليها رجل ما،

أما الشقراء فلا. كانت توزع البسمات بشح البخلاء.

خرج نادل إلى الشرفة وسأله: «أتود أن تشرب شيئاً سيدي؟».

أومأ جياني وأخذ كوباً من العصير المنعش ورفعه إلى شفتيه.

لقد وصل هو والشقراء إلى البهو في الوقت نفسه. وكانت أبواب المصعد الخاص المؤدي إلى المنزل على وشك الإغلاق حين سمع صوتاً يقول: «هاي».

ضغط جياني على الزر الذي يعيد فتح الباب ففتح ورأى الشقراء صاحبة الصوت. وكان الانطباع الأول بأنها ليست نوعه المفضل.

ابتسم لها بتهذيب وقال: «آسف، لم أنتبه لقدومك».

رمقته بنظرة مطوّلة وبدا الارتياب على ملامحها، وقالت: «إنه مصعد خاص».

التوت شفتا جياني في ابتسامة: «إنه فعلاً كذلك».

- لا يصل سوى إلى الحجرة المشيّدة على سطح البناء.

أجاب بنبرة جافة: «يا للمصادفة، إنها المكان الذي أقصده».

- هل البواب....

قال لها وقد تلاشت الابتسامة عن شفتيه: «لعلك تودين رؤية رخصة القيادة، أو جواز السفر أو وثيقة الولادة، أو ربما عليّ أن أطلب ذلك منك».

أدت كلماته إلى ظهور أثر من الاحمرار على وجنتيها:

- أنا ذاهبة إلى حفلة لوشيبي.

- وكذلك أنا، أو سأفعل ذلك حين تدخلين إلى المصعد.

دخلت المصعد ووقفت بجانبه تنظر أمامها مباشرة. فحاول أن يعطيها فرصة أخرى: «هل أنت صديقة فالون؟».

أجابته من دون أن تنظر إليه: «كلا»

- ستيفانو؟.

- كلا.

www.elromancia.com

- إذاً» أنت مع .....

أجابت مجدداً وهي لا تزال تحدق أمامها: «أنا، لا أرى أن هذا لا يعنيك».

ونظرت إليه بعينين باردتين كالثلج قبل أن تضيف: «كما أنك لا تهمني».

حان دوره ليردّ عليها بالقول: «أؤكد لك أني لست...».

وفتح باب المصعد فأسرع جياني للخروج أولاً من دون أن يفسح المجال للمرأة كي تسبقه. من حسن الحظ أنهما لم يلتقيا عند باب شقة ستيفانو لأنه لم يكن واثقاً مما قد يفعله: أيقرع الجرس أم يقول لها أن تذهب إلى الجحيم.

كان يعلم أن ما حصل يبدو صبيانياً وكان على وشك أن يعبّر لها عن رأيه بها لو لم يلمح ستيفانو قادماً وهو يبتسم له، ليلاحظ أن الشقراء تخطته وأطلقت صوتاً مليئاً بالبهجة وهي تركض لترتمي بين أحضان صديقه.

قالت بسرور: «ستيفانو؟».

التوت شفتا جياني قرفاً وسعى للاختلاط بالجموع.

من الواضح أن أميرة الجليد كانت تحتفظ بابتساماتها لقلة نادرة من المفضلين لديها. لكنه لاحظ وهو يراقبها الآن أنها تبتسم لزوجة ستيفانو وابنته بإشراق وتأخذ الطفلة من بين ذراعي فالون. كما لاحظ أنها تزم شفتيها وكأنها تناغي الصغيرة التي أخذت تركل بقدميها الصغيرتين. ولم تعد الشقراء تبتسم وحسب بل أرجعت رأسها إلى الوراء وضحكت ضحكة من الأعماق أطلقتها بصوتها المبحوح الأجش. خطر له أن تلك الضحكة في ظروف مغايرة كانت لتعتبر بغاية الإثارة.

ضاقت عينا جياني.

أدرك أنه ارتكب بعض الأخطاء بحق تلك المرأة وإن لم يكن ذلك

بالشيء المهم نظراً للوضع الراهن، فشعرها لم يكن أشقر بل عبارة عن عشرات الظلال الذهبية الباهتة المتدرجة. كما لم تكن نحيلة بل هيفاء ممشوقة وممتلئة الردفين.

كانت ترفع الطفلة في الهواء وهي لا تزال تضحك فأدرك أنها تمتلك من المفاتن ما لا يغفله سوى الأعمى من الرجال. كما أظهر الفستان الأخضر الذي ترتديه تفاصيل تلك المفاتن ما جعله يسرح بأفكاره بعيداً... بعيداً جداً.

تباً له! ما الذي يفعله؟

كانت تلك حفلة خاصة بالأطفال لا باختيار أجمل فتاة. كما أن وجوده على الشرفة لم يجده نفعاً، فحتى لو استدار ينظر إلى البعيد، كانت أفكاره تعيده إلى النقطة ذاتها ومشهد المرأة نفسها في الغرفة وراءه...

ركز جياني على أفق مانهاتن الغارق بظلال برتقالية خلفتها الشمس الغاربة لكن التفكير في الألوان لم يسده معروفاً أيضاً لأنها ردّته إلى ألوان شعرها وظلاله.

- إنها جميلة، أليس كذلك؟.

كان ستيفانو يقف بجانبه يضحك ويرفع كوب العصير.

سأل بابتسامة ماكرة: «هل يبدو هذا واضحاً؟».

- بالطبع. هل تمزح؟.

تنهد جياني وقال: «شكراً جزيلاً».

- أنا لا أقول سوى الحقيقة.

- يسهل عليك قول ذلك.

- حسناً، طبعاً، من يستطيع مقاومة مثل هذا الجمال؟.

قال جياني: «دعنا لا نستفيض أكثر في الموضوع. إنها جذابة لو كنت أحب هذا النوع من الجمال فعلاً».

- جذابة؟.

www.elromancia.com

- أجل، تعلم أنها تتمتع بكافة المواصفات اللازمة. لكن هذا لا يجعلها فاتنة.

كان ستيفانو ينظر إليه وكأنه فقد عقله واستعاد في خياله كيف حيّت الشقراء صديقه القديم سواء أكان متزوجاً أم لا.

- تلك مزحة، أليس كذلك؟

- ولماذا عساي أمزح؟ أنا جدي تماماً كما أنها تتمتع بجمال الحرباء.

توجم ستيفانو وقال: «لحسن حظك أننا صديقان منذ زمن وإلا لقتلتك».

- ما بك يا رجل؟ هل ستقتلني لأنني لا أوافقك الرأي حول مدى جمال امرأة؟.

- أنت محق تماماً. لأن المرأة التي تتحدث عنها تحديداً....

توقف ستيفانو فجأة عن الكلام ثم رفع حاجبيه ليسأل: «عن أي امرأة تتحدث بالمناسبة؟».

هل فقد عقله كما خسر حريته؟

أجاب جياني بنفاد صبر: «الشقراء طبعاً. المرأة التي حيّتك بكل... حرارة. وبالمناسبة ألا تعارض فالون هذا النوع من العناق؟».

اتسعت عينا ستيفانو وردّ رأسه إلى الوراء قبل أن تدوي ضحكته في أرجاء المكان.

قال جياني ببرودة: «رائع، يسرني أنك تظن أن...».

شهق ستيفانو وقال: «الشقراء. يا إلهي أنت تتحدث عن المرأة ذات الشعر الأشقرا!».

وضع جياني الكوب بعنف على إحدى الطاولات القريبة واتجه نحو الباب فأمسك ستيفانو بذراعه وسأله: «إلى أين تذهب أيها الأحمق؟».

قال جياني من بين أسنانه بغضب: «اسمع، أكره أن أمسح أرض المنزل بك أمام أعين ضيوفك، لكن ساعدني في ألا...».

- كنت أتحدث عن ابنتي!.

- أجل.. وأخبرتك..

طرف جياني بعينيه مذهولاً وشعر فجأة باحمرار وجنتيه: «ابنتك؟ أكنت تتحدث عن... عن...؟».

- عن كريستينا طبعاً. لكنك ظننت أنني أتحدث عن امرأة.

أدار جياني وجهه واتكأ على الحافة وأخذ يحدق بذهول في الأفق. كانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ. وتلعثم وهو يقول: «أنت محق، فأنا أحمق».

أطلق ستيفانو ضحكة: «يسرني أننا متفقان على هذا الأمر».

ظل الرجلان صامتين للحظة قبل أن يتنحنح ستيفانو ويقول: «عن أي شقراء كنت تتحدث؟».

لوح جياني بيده بلا مبالاة: «هذا ليس مهماً».

عادت اللحظات تمرّ صامتة بين الاثنين: «حسناً، تلك التي ارتمت بين ذراعيك عند وصولها إلى هنا».

- هذا ليس وصفاً جيداً فيريللي فالنساء كلهن يرتمين بين ذراعيّ.

أطلق جياني ضحكة: «يستحسن ألا تسمعك زوجتك تقول ذلك».

انضمت فالون إلى الرجلين وابتسمت وهي تسأل: «يستحسن ألا تسمعه زوجته يقول ماذا؟ تسرني رؤيتك مجدداً جياني».

ابتسم لها جياني وقبّل وجنتها قائلاً: «كما تسرني رؤيتك فالون. جعلتك الأمومة أكثر جمالاً. لم أكن أظن ذلك ممكناً».

طرفت فالون برموشها: «أيها المراوغون! تعرفون كيف تسترضون المرأة دائماً».

أجاب ستيفانو: «بعضهن فقط».

رفعت فالون حاجبيها فأضاف: «يبدو أن إحدى ضيفاتنا رفضت

www.elromancia.com

فرصة إضافة اسمها إلى سجل جياني الأسود الصغير».

قال جياني محذراً: «ستيفانو».

لف ستيفانو ذراعه حول كتفي زوجته قائلاً: «هيا، لا تكن خجولاً. إن كنت مهتماً بإحدى ضيفاتنا...».

أجاب جياني بسرعة: «لست كذلك، قلت فقط».

قالت فالون: «أشر بإصبعك ناحيتها وسأعرّفك إليها».

نظر جياني إلى ستيفانو صاحب الابتسامة العريضة التي تمتد إلى ما وراء أذنيه: «تباً لك لوشيسي! فالون، زوجك يسرح بمخيلته بعيداً».

قال ستيفانو وكأنه لم يسمع جياني: «أنا أعلم من تكون».

أجاب جياني بسرعة: «بل لا تعلم. لا بد من وجود عشرات الشقراوات في هذه الحفلة».

- لكنك قلت الشقراء التي ارتمت بين ذراعي.

- وماذا يعني هذا؟.

غمز ستيفانو زوجته: «وقلت إنها جذابة أيضاً. أذكرك أنك قلت إنها جذابة وليست جميلة».

قال جياني ببرودة: «ماذا في ذلك؟ ماذا تقصد؟».

أجاب ستيفانو بمكر: «أقصد أني أعرف من تكون».

ثم توقف عن الكلام لوقت طويل يكفي كي يجذب اهتمام جياني قبل أن يقول مجدداً: «لأن السيدة التي تسأل عنها هي شقيقة زوجتي».

حدّق جياني في صديقه القديم: «شقيقة...».

قال ستيفانو لفالون: «إنه يتحدث عن برايانا. ولِمَ يصبّ رجل اهتمامه على امرأة يظنها جذابة لكن غير جميلة؟».

- أنا لا أصب اهتمامي عليها. لم أجد هذا النوع من النساء مثيراً قط، أظنني أتورط بالحديث أكثر فأكثر أليس كذلك؟».

وافقته فالون الرأي. وأفلتت من ذراع زوجها وشبكت ذراعها

بذراعه قائلة: «والطريقة الوحيدة هي أن تدعني أعرّفك إلى بري بحيث تحدّد ما هو رأيك بها تماماً، وتتعرف إلى النوع الذي لم تجده مثيراً للاهتمام قط».

كان ستيفانو وفالون يضحكان فأخذ يضحك هو أيضاً أو حاول ذلك بينما جرّته إلى الغرفة المكتظة بالضيوف. وبعد أن ألقى نظرة سريعة على الغرفة حمد الله لأنه لم يلمح برايانا أو بري أو مهما كان اسمها.

وقال يكذب: «كنت أود أن ألتقيها. من المؤسف جداً أنها رحلت على ما يبدو».

أجابت فالون وهي تتجه نحو السلالم المؤدية إلى الطبقة العلوية: «بل ذهبت إلى الأعلى لتغيّر حفاظ الصغيرة ولن أدعك تتراجع».

- اسمعي فالون، أنا آسف. ما كان يجدر بي قول ما قلته عن أختك. أنا واثق من أنها فاتنة وجميلة أيضاً، و....

- بري، ها أنت!.

أشاح جياني نظره عن مضيفته لينظر إلى المرأة التي تهبط السلالم متجهة نحوهم.

وفهم ما الذي يجري على الفور.

برايانا لم تكن جميلة، بل رائعة بشعرها الأشقر الطويل المتمايل فوق كتفيها والذي يؤطر وجهها ذا العينين الزرقاوين بلون البحر. الفم الممتلىء الشفتين، والقوام الجميل والقد النحيل.

لم تحاول على الأقل أن تسمّره بنظرتها الجليدية. وأنى لها أن تفعل في حين أنها لم تنظر إليه سوى لجزء من الثانية؟

- بري، هذا جياني فيريللي. جياني، إنها أختي الصغرى، بري.

قالت صاحبة الشعر الأشقر وهي تحوّل انتباهها عن فالون: «بل برايانا. نامت الطفلة ما إن وضعتها في العربة. تركتها مع المربيّة. هل يناسبك ذلك؟».

www.elromancia.com

- لا بأس، حسناً بري! جياني هو أحد أقدم أصدقاء ستيفانو.

هذه المرّة وجد نفسه تحت تأثير نظرتها الجليدية وهي تقول: «كم هذا جميل! والآن هلا عذرتموني؟».

وقبل أن يتمكن من ردع نفسه قال جياني: «ولماذا عسانا نعذرك؟».

ابتعد خطوة عن فالون ليقترب أكثر من برايانا وقال بصوت منخفض بحيث لا يسمعه أحد سواها: «هل أنت هكذا دوماً فظة وقليلة الأدب أم أنه أمرٌ شخصي؟».

التقت نظراتهما وسمّرته بعينيها الزرقاوين اللتين رأى فجأة في أعماقهما شرارة، لهباً قوياً بما يكفي لإشعال روحه. وهمست تجيب: «أنت تطري نفسك».

ورحلت.

لم يفهم جياني من قبل ما يعنيه الناس بقولهم إن الدماء تغلي في عروقهم لكنه فهم معنى ذلك الآن. حدّق في إثرها وهي تبتعد متخيلاً متعة اللحاق بها وخنقها بيديه وهزها إلى أن ترجوه ليعانقها...

- أنا شديدة الأسف جياني.

طرف بعينيه وركز على وجه فالون مجدداً التي بدت الدهشة واضحة على وجهها.

- بري ليست... ليست شخصاً فظاً. لا أعلم ما الذي حدث لها.

لم يكن الابتسام أمراً سهلاً لكنه نجح في تصنع ابتسامة وهو يقول: «لا بأس».

- بل ليس كذلك. اسمع دعني أبحث عنها و....

أتى صوته حاسماً: «كلا».

تصنع ابتسامة حذرة أخرى، وأضاف: «لا تفعلي فالون. لم أشعر بالإساءة».

- بل يجدر بك أن تفعل. ما أن ألتقي بها وحدنا....

- انسي الأمر، لعلها عاشت يوماً صعباً.

- مَن؟ بري؟ بري تعيش يوماً صعباً؟.

أطلقت فالون زفرة وأضافت: «لا أعلم كيف يمكن أن يحصل ذلك فأختي لا تفعل شيئاً يعتبر صعباً».

إلا معاملة الرجال وكأنهم يستحقون الاحتقار، هذا ما خطر لجياني لكنه لم يتكلم فهي ليست مسؤولة عن تصرّفات أختها.

- أليس لديها عمل؟.

ابتسمت فالون: «بل أعمالها لا تنتهي. عملت كمصوّرة، ومستشارة سفريات، ومندوبة مبيعات، ومساعدة أبحاث حول برامج الألعاب... تقول أمي إنها لا تزال تبحث عن نفسها لكني أظن صدقاً أنها لم تضيّع نفسها أصلاً لتجدها. إنها مجرّد هوائية...».

كانت تلك طريقة مهذبة للقول إن برايانا لا يعتمد عليها، وليست فقط فظة وقليلة التهذيب. هذه المرأة لا تناسب أي نوع من الرجال لا سيما هو.

أخذ يدي مضيفته بين يديه قائلاً: «فالون، لقد أمضيت وقتاً رائعاً».

- لا تقل لي إنك ستغادر!.

ابتسم وطبع قبلة خفيفة على يدها: «أخشى أني سأفعل. لدي موعد عشاء هذا المساء».

- للأسف. كنا نأمل أنا وستيفانو أن تبقى بعد أن يرحل الآخرون. إنه يحب التحدث إليك عن أيام الشباب.

- أعدك أن أبقى في يوم آخر. ودّعيه عني.

شبكت فالون ذراعها بذراعه وهما يمشيان ببطء نحو الباب: «سأفعل، أنا آسفة حقاً يا جياني بشأن ما فعلته أختي».

- لا داعي لذلك. لقد تمّ رفضي سابقاً.

www.elromancia.com

ضحكت فالون واستدارت لتأخذ وجهه بين يديها، قائلة:

- إنك مخادع كبير، جياني فيريللي. كلانا يعلم أن ما من امرأة على قيد الحياة لا تذوب ما أن تبتسم لها.

أجابها بخفة: «أتمنى أن تكون أبواب السماء مفتوحة».

ضحكت مجدداً وقالت: «سررت لرؤيتك. وأشكرك على الهدية الرائعة التي جلبتها لكرستينا».

- إلى اللقاء جياني.

دخل المصعد وهو لا يزال يبتسم. لكنه ما لبث أن قطب وهو يسحب هاتفه من جيبه.

أجابت ليندا عند الرنة الأولى بهمس لطالما وتر أعصابه واستغرب أنها لم تشده هذه المرّة.

- هذا أنا.

تحوّل همسها إلى دهشة وهي تقول: «جياني، كنت آمل أن تتصل. هل ستأتي؟».

كان المصعد قد وصل إلى الطابق الأرضي فخرج منه واتجه إلى السيارة: «لتناول العشاء معاً».

- بالطبع حبيبي. هل سنخرج؟ هل أرتدي شيئاً مميزاً أم أبقى كما أنا؟.

برايانا أوكونيل.

- جياني... هل تسمعني؟.

تنحنح قبل أن يقول: «أسمعك ليندا».

- ما الذي تودّ أن تفعله؟ يمكننا الذهاب إلى المطعم الذي تم افتتاحه حديثاً، المرج الأخضر. يقال إنه رائع!

أخضر كثوب برايانا الذي يبرز مفاتنها. رائع كوجهها...

وأدرك جياني فجأة ما الذي يريده حقاً. لم يكن للأمر علاقة ببرايانا أوكونيل، لا علاقة له بها على الإطلاق بل إنه أمرٌ يخطر له

منذ بضعة أسابيع وقد حان الوقت لبتّه.

- ليندا؟.

- نعم.

- لا تزعجي نفسك بإجراء الحجز، سأكون هناك في غضون عشرين دقيقة. حضري نفسك.

سمعها تشهق قبل أن تسأل: «هل كل شيء على ما يرام جياني؟».

- عشرون دقيقة.

وضغط الزر لإنهاء المكالمة.

غادر شقة ليندا للمرّة الأخيرة بعد ساعة من الوقت. كانت تبكي وكره أن يعلم أنه السبب لكنهما اتفقا منذ البداية أن ينفصلا بهدوء وبصدق عندما يحين الوقت.

أطلق جياني تنهيدة. كان الظلام قد حلّ على المدينة وشعر برغبة عميقة في الوصول إلى المنزل والاستحمام بالمياه الساخنة ورمي أحداث هذا النهار الغريب وراء ظهره. فكّر في أن يوقف سيارة أجرة لكنه قرر في نهاية الأمر أن يعود مشياً على الأقدام.

غداً سيرسل هدية ما لليندا يمحو بها حزنها، ويمسح الدموع من عينيها والشعور بالذنب من رأسه.

في الواقع، فكّر في إنهاء العلاقة منذ بضعة أسابيع. كانت الأمور قد وصلت إلى حدّها قبل ذهابه إلى تلك الحفلة اللعينة حيث نظر في عيني تلك المرأة التي بدت غير مبالية برؤيته أو بوجوده، قبل أن يرى في تينك العينين شيئاً آخر.

قبل أن يرى في تلك النظرة الخاطفة شرارة اللهب.

كانت الرياح باردة بشكل يثير الاستغراب بعد هذا اليوم الصيفي الحار. رفع جياني ياقة قميصه ليحمي عنقه من الهواء ودسّ يديه في جيبيه وسرّع الخطى.

www.elromancia.com

٢ ـ الكذبة الأكبر

- لماذا لم يعجبك؟.

رفعت بري عينيها عن طبق السلطة أمامها. ها هو السؤال التي كانت تنتظره منذ أن اتصلت بها فالون لتدعوها لتناول الغداء. المفاجأة هي أن الاتصال تطلّب أسبوعاً كاملاً والسؤال نصف ساعة ليطرح.

سألت ببراءة: «من هو هذا الذي لم يعجبني؟».

لماذا عساها تتهرب أكثر من الموضوع؟

- تعلمين عمن أتحدث، جياني فيريللي.

وضعت بري قطعة طماطم في فمها وأخذت تمضغها على مهل. كانت أمام خيارين، إما أن تظل تسأل عن المعني وتدعي أنها لا تعلم عمن تتحدث أختها أو أن تقول لها أن تهتم بشؤونها وتدعها، وكلا الخيارين لن يجديا نفعاً. لقد تعلّمت مع الوقت ما تعنيه تلك النظرة التي رأتها في عيني أختها، ومن الأفضل أن تدخل في صلب الموضوع مباشرة.

وضعت الشوكة من يدها وقالت: «أفترض أننا نتحدث عن واقع أني لم أقع عند قدمي الرجل».

- تقعين عند قدميه؟ مجرد تحية بسيطة.

- قلت له مرحباً!

- تعلمين ما الذي أقصده بري. كدت تقطعين رأسه بنظرتك.

- كلا، لم أفعل.

- بل فعلت. لا يسعني أن أصدق كم كان تصرفك سيئاً!

كان تصرفها سيئاً؟ رفعت بري ذقنها تماماً كما فالون.

- لا يسعني أن أصدق أنك لا تزالين تعامليني وكأني في السادسة من عمري!.

- كنت فظّة.

- بل كنت صادقة وعفوية.

- الفظاظة لا تعني العفوية.

- هذا رأيك أنت. هل ستأكلين قطعة الخبز الثانية؟.

- كلا، لا تغيري الموضوع.

- أنا لا أغيّر الموضوع، جلّ ما أريده هو ألا تضجريني بكثرة الأسئلة.

- تصرفاتك كانت رهيبة.

قالت بري بنعومة: «لا أعلم كيف. اسمعي، أنت أختي ولست أمي».

- هذا أمرٌ حسن. لو لم تتأخر طائرة أمي ووصلت إلى الحفلة في الموعد المحدد لرأت تصرفاتك. هل تتخيّلين ردّ فعلها؟.

تغيّرت نبرة بري من النعومة إلى الدلال وهي تقول: «كلا، لِمَ لا تخبريني بنفسك؟».

- حسناً، كانت لـ... لـ....

- كانت لترسلني إلى غرفتي من دون عشاء؟ وتحرمني من المصروف؟.

نظرت الأختان إلى بعضهما البعض قبل أن تطلق فالون تنهيدة: «حسناً، لعلي أبالغ قليلاً».

أجابت بري وهي تعود للإمساك بالشوكة مجدداً: «حمداً لله».

- لكن تحيتك كانت سريعة.

- أردت أن أتأكد من أن السيد فيريللي وصلته الرسالة.

- وهي؟.
- أني لست مهتمة لأمره.
- لكن جياني طيب جداً.
- من دون شك.
- كما أنه وسيم.

هزت بري كتفيها ووضعت الشوكة من يدها وتناولت قطعة زبدة وهي تقول: «وسيم؟ أفترض ذلك».

- مهلاً. أنت تعلمين تماماً أنه وسيم.

أجابت بري وهي تأخذ قطعة الخبز وتدهنها بالزبدة: «ما أعلمه هو أن جياني فيريللي رجل بغاية الوسامة».

طرفت فالون وقالت: «حسناً، إنه كذلك... ماذا قلت؟».

- لقد سمعتني. رجل مثله بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين وعضلاته المفتولة وشعره الأسود وعينيه الخضراوين والوجه الذي يشبه أحد آلهة الإغريق....

قاطعتها فالون: «إنه إيطالي».

تناولت بري كوب العصير وهي تبتسم لتعبير الذهول الذي بدا على وجه أختها وقالت: «مجرّد تفصيل ثانوي، المهم هو أن الرجل فائق الوسامة من رأسه حتى أخمص قدميه. كفّي عن النظر إليّ هكذا فالون! أنا لست عمياء، أتظنين أني لم ألاحظ؟».

استرخت فالون في جلستها: «لا أعلم ما الذي ظننته، أخبريني المزيد».

- ماذا هناك بعد لأخبرك؟ أنا واثقة من أن عشرات النساء في الحفلة تمنين أن ينظر إليهن.
- ولكن؟.
- ولكن كما سبق وأخبرت كارين....

سألتها فالون مذهولة: «كارين؟».

- أجل كارين ماسيني، زوجة توماسّو.
- صحيح. أنسى دوماً أنكما صديقتان حتى قبل أن أتزوج ستيفانو.
- أجل نحن صديقتان منذ سنوات، وزميلتان منذ أيام الجامعة بل صديقتان حميمتان. عندما تزوجت توماسو وانتقلت للعيش في كاليفورنيا لم نعد نلتقي كثيراً. لكن الأمور تغيّرت بعد حملها وعودتها إلى نيويورك.

شعرت فالون بنفاد صبر وعادت إلى الموضوع الأساسي: «أجل، أتذكر ذلك. إذاً أنت وكارين تحدثتما عن جياني؟».

- قالت إنها لاحظته ينظر إلي و... تعرفين مثل تلك الأمور.

رغبت فالون أن تمدّ يديها فوق الطاولة وتخنق أختها. وتذكرت ما قاله لها زوجها عند الفطور: حاول ألا تلعبي دور الخاطبة، فجياني وبرايانا لم يتفاعلا، نقطة على السطر. لا تتاح للكل فرصة الوقوع في الحب من النظرة الأولى.

كلا، لعله ليس الحب ما حصل بين صديقها ستيفانو القديم وأختها الصغرى. كانت فالون متأكيدة من ذلك. لم تكن كارين وحدها من لاحظ نظرات جياني لبري أو الطريقة التي نظرت هي بها إليه، حتى وهي ترمقه شزراً.

قالت بحذر: «كلا، لا أعرف ما هي تلك الأمور. أخبريني أنت ما الذي قالته كارين؟».

مسحت بري شفتيها بفوطتها وأبعدت الصحن: «لا أتذكر تماماً، لكن شيئاً من قبيل: أشفقي على الشاب وامنحيه ابتسامة على الأقل».

- أرأيت؟ لقد تصرفت بقلّة تهذيب ولاحظ الناس ذلك. مسكين جياني.

جاء ردّ بري محملاً بالاستهزاء وهي تقول: «مسكين جياني! جياني المسكين يحتاج لشفقتك بقدر ما يحتاج الدب لمعطف من

www.elromancia.com

الفرو. للشاب عشيقة».

- حقاً!.

- أجل عشيقة. مع ذلك غازلني أنا، فما رأيك به الآن؟ أم أنه لم يزعج نفسه بذكر أننا التقينا في المصعد؟.

عادت فالون بالذاكرة إلى المرّة الأولى التي التقت فيها زوجها وقالت: «حسناً، حسناً».

- ثمة شيء ما في هذا الشاب لا يعجبني. اتفقنا! لنقفل الموضوع.

- بري حبيبتي، لقد مررت بعلاقات كثيرة، دوماً ما لا يعجبك في هذا الشاب أو هذا. لا تجعلي ذلك يبدو واضحاً على ملامح وجهك، فأنت فتاة كبيرة....

أجابت بري بهدوء: «بل فتاة راشدة. يبدو أنك وميغان لا تعلقان الكثير من الأهمية على هذه الفكرة».

- نريدك أن تكوني سعيدة وحسب. أن تجدي شخصاً تحبينه.

- الرغبة ليست حباً.

احمرّت وجنتا فالون وهي تقول: «هكذا يبدأ الحب أحياناً».

تغيّرت ملامح بري لتصبح حالمة: «ليس بالنسبة إليّ، قد التقي الرجل المناسب يوماً. سيكون رقيقاً ومهذباً. لن يفعل ما يضايقني. قد لا أصادفه بين الحشود ولكن...».

- ماذا عن الشغف؟.

-الشغف ليس جوهر القضية.

أجابت فالون بنعومة: «بل إنه كذلك. وإن لم تكوني شغوفة به، فأنت لم تجدي الرجل المناسب».

- الشغف هو العنصر رقم واحد والأهم على الإطلاق.

ما إن نطقت بري بهذه الكلمات حتى انفجرت أختها ضاحكة كما تمنت تماماً، وهذا أمر جيد إذ لم ترغب في التعمق أكثر في هذا

الحديث.

وأضافت تقول: «لا تقلقي بشأني، اتفقنا؟ وأنا أدفع الحساب، لا نقاش».

راقبت فالون برايانا تبحث في حقيبة يدها. وقالت برقة لا متناهية جعلت بري ترفع نظرها: «بري؟ بالنسبة لموضوع الشغف، أنا أعرفك جيداً. أنت كالنار المشتعلة، مليئة بالحياة، فلِمَ تنكرين الأمر؟».

أجابت تحاول أن تكون نبرتها هادئة: «أمر غريب، قالت كارين الكلام نفسه. هل تظنان فعلاً أني لا أعرف ما هو الأفضل لي؟».

- بالكاد أعرف كارين تلك، لكني أقدّر عمق رؤيتها للأمور. هل فكرت يوماً في أننا قد نكون على حق؟ لعلك تكذبين على نفسك. لعل ما تريدينه فعلاً هو رجل يخطف أنفاسك ويقلب كيانك.

اشتعلت عينا برايانا ورأت أن وقت الحقيقة حان. انحنت قليلاً إلى الأمام وقد اختفى كل إحساس بالمرح لديها وقالت: «رجل يخطف أنفاسي ويقلب كياني؟ كما فعل أبي بأمي؟ كنت طفلة حينها وقد تظنين أني لا أتذكر لكنني أفعل. كانت أمي تكافح وتدّعي أن الأمور بخير في حين أنها لم تكن كذلك وتدّعي التبسم حين ترغب في البكاء...».

- بري....

- تحوّلت أمي إلى نكرة بسبب الرجل الذي خطف أنفاسها وقلب كيانها. لقد عاشت لأبي ومن خلاله وإن كنت تظنين أني سأفعل الأمر ذاته، فأنت مجنونة!.

قالت فالون بهدوء: «أهذا ما تظنينه بي؟ أني نكرة!».

- كلا، لم أقصد ذلك.

- ستيفانو خطف أنفاسي من النظرة الأولى وقلب كياني. وتوماسو فعل بميغان الأمر نفسه. ونظرة واحدة إلى زوجتي أخوينا تكفي لنعرف أن الأمر ذاته حصل لهما. كلنا مغرومات بأزواجنا وشغوفات بهم.

www.elromancia.com

فهل نحن جميعاً نكرة؟.

أخذت بري نفساً عميقاً وقالت: «كلا، أبداً. لا جدوى من هذا الحديث. كل ما في الأمر أني لا أبحث عن الشغف، إن نجح الأمر معك فهذا رائع، لكنني أعرف نفسي... أنا أريد...».

- علاقة هادئة.

- أجل.

- علاقة لا تستنزفك.

- ما من خطب في ذلك!.

لامست فالون يد بري وقالت بهدوء: «تريدين علاقة آمنة، فما الذي تخافينه أختي؟».

أجابت برايانا بسرعة: «لا شيء»

لكنها كانت تعلم أنها تكذب فهي خائفة بالفعل. خائفة من الأحلام التي تراودها عن جياني فيريللي كل ليلة منذ رأته في الحفل. خائفة من اللحظة الجنونية حين التقت نظراتهما وشعرت بالأرض تهتز تحت قدميها. خائفة من أن تخسر نفسها وأحلامها وآمالها وكيانها من نيران الشغف.

* * *

انقضى شهر أيار وحلّ حزيران الذي سرعان ما رحل ليسلّم شهر تموز أيام الروزنامة.

كانت أياماً حارّة رطبة لكن جياني لم يلاحظ ارتفاع درجات الحرارة. كان منغمساً في مجريات محاكمة تطلبت اهتمامه الخاص لا سيما مع الاقتراب من النهاية وإصدار الحكم. لم يواعد أيّ امرأة منذ انفصاله عن ليندا. وانتشر الخبر وسعت النساء لإغوائه لكنه لم يكن في المزاج المناسب لذلك. حتى أنه لم يرغب في حضور الحفلات منذ شهر أيار، منذ أن عاملته برايانا أوكونيل بجفاء، سرعان ما تحوّل إلى ازدراء. كان يحتاج لوضع حدّ للقصة، للوصول إلى خاتمة.

دخل منزله ليلة الجمعة متعباً فخلع سترته وحلّ ربطة عنقه وفكّ أزرار قميصه بينما هو يتوجّه إلى غرفة النوم.

عدم وضع النقاط على الحروف هو السبب في عدم تمكنه من محو ما حصل من رأسه. كان غاضباً من نفسه لأنه لم يتمكن من أن يعبّر للسيدة عن رأيه بها لكن أنّى له أن يفعل ذلك؟ فهو لم يكن سوى ضيف في منزل ستيفانو هي أخت زوجته.

وضع جياني أزرار كمّي القميص الذهبية على الطاولة فضلاً عن محفظة نقوده ثم خلع ما تبقى من ثيابه استعداداً للاستحمام. لكنه تذكر المغلف الضخم الذي سلّمه إياه البواب.

ضاقت عينا جياني وهما ترمقان المغلف. لا بد أنه يحتوي على دعوة ما. لقد تسلّمه عبر رسول ومحتواه عبارة عن مباراة ما لتوزيع الجوائز. مهما كانت الدعوة الموجهة إليه فهو لن يذهب، إذ لا يرغب في التواجد في المجتمع كما لا يرغب في الاستماع إلى هذا وذاك. لكن أحداً ما في مكان ما كان ينتظر إجابة، وهو يؤمن بضرورة التصرف بتهذيب ولو كان في... الجحيم.

فتح المغلف وشعر بسوء مزاجه يختفي. لقد رزق توماسو وكارين بطفلة. وتحوّلت ابتسامته إلى تكشيرة بعد أن قرأ أنهما يقيمان لها حفلاً ترحيباً بقدومها إلى العالم. لا بد أنها فكرة كارين. لم يكن جياني يعرفها جيداً لكن مما لاحظه وما سمعه من توماسو، كانت كارين نقيض زوجها.

وخبت ابتسامة جياني فالحفلة تقام الليلة.

أغمض عينيه متنهداً وأخذ يفرك رقبته. كان منهكاً وآخر ما يتمناه هو حضور حفلة. لكن حياة أخرى أتت إلى هذا العالم وهو لا بد من أن يهنىء توماس وكارين ويتمنى لابنتهما العمر المديد.

ألقى جياني المغلف على الطاولة وتوجه إلى الحمام.

لن يلعب أحدهم الليلة على الأقل دور الخاطبة بوجود الطفلة

www.elromancia.com

محط اهتمام الجميع.

كما أنّ احتمال لقائه ببرايانا أوكونيل الليلة أشبه باحتمال وجود كرات ثلج في الجحيم.

لكنه التقى أميرة الثلج بعد بضع لحظات من وصوله إلى الحفل إذ وقع نظره عليها ما أن دخل المكان فتوقف عن السير فجأة.

كانت تقف مع مجموعة من الأشخاص وتدير ظهرها إليه لكن هذا لم يشكل فارقاً كبيراً بالنسبة له. فقد عرف الشعر الذي يصل إلى الخصر والساقين اللامتناهيتين والكعبين الرفيعين اللذين يشكلان خطراً على حياة الرجل.

كان اهتمامها منصباً على الشاب الذي يبذل جهده ليجعلها تضحك، فشعر جياني بعضلاته تشتد. تلك المرأة تضحك بسهولة للجميع إلا هو. ما الذي تفعله هنا؟ لا بد أنه توماسو. وشاء سوء حظه أن يمرّ توماسو بجانبه فأمسك جياني بكتفه وحملق فيه قائلاً: «هل أنت من دعاها؟».

- دعا من؟.

- اللعنة عليك توماسو... لكن لا، كلا، أنت لن تفعل بي هذا. هذه فعلة فالون.

- وما هي فعلة فالون تلك؟

كان ذهول توماسو صادقاً جداً بحيث علم جياني أنه لا يكذب.

أمال جياني رأسه ملتفتاً نحو بري قائلاً: «فالون هي من تآمر مع كارين لفعل ذلك، لدعوة برايانا أوكونيل...».

- ما من مؤامرة فبرايانا هي أعزّ صديقة لكارين.

حان دور جياني ليبدو عليه الذهول: «أعزّ صديقة لها؟».

رفع توماسو حاجبيه وقال: «انقطع الاتصال بينهما لبضع سنوات لكنهما أفضل صديقتين بالفعل. كانتا في الجامعة معاً حيث أقامتا في

الغرفة ذاتها. إنهما أشبه بأختين حقيقيتين. لكن ما المشكلة في ذلك؟».

أجاب جياني قلقاً: «لا شيء، ما من مشكلة».

نظر إليه توماسو بودّ يسأله: «هل أنت واثق من ذلك، هل من مشكلة بينكما؟».

- الأمر أشبه بعنكبوت يعاني من مشكلة مع ذبابة. ما رأيك لو تصطحبني للقاء ابنتك؟

كانت الطفلة ظريفة كما كل الأطفال. وكان الطعام جيداً والشراب لذيذاً وأصبح جياني مستعداً للرحيل بعد وصوله بعشرين دقيقة.

لم تكن الحرب العالمية الثالثة قد اندلعت بعد، وأميرة الجليد إما لم تعلم بقدومه وإما أنها تتجاهله عن عمد. كانت لا تزال تتحدث إلى مجموعة الأشخاص نفسها لكن الأمر الوحيد الذي تغير هو أنه بات يستطيع سماع ضحكاتها الآن.

كانت الضحكات ذاتها التي سمعها في منزل ستيفانو. ضحكات مثيرة، مبحوحة، تقوده للجنون.

كيف تضحك وهي تعتبر نفسها أعلى مرتبة منهم؟ كيف لم تعرف بوجوده؟ عليها أن تعرف. لم يكن يعرف نوع العلاقة التي تربطها بكارين لكنها تعلم حتماً أنه وتوماسو صديقان قديمان، و...

لن يقلق حيال دفعها له نحو الجنون فقد سبق له أن نزل سلالم الجحيم بقدميه. وإلا لمَ يقف هنا يراقبها؟ لمَ يهتم للأمر؟ لم يشعر بأعصابه تتوتر وضغط دمه يرتفع.

حسناً، لا بأس! الخاتمة. ألم يكن هذا ما يريده؟ شعر بعضلة وجهه تتشنج. الخاتمة هي ما سيحصل عليه والآن.

لا بد أن تعبيراً ما ارتسم على وجهه وهو يجتاز الغرفة لأن الأشخاص الذين كانوا من حولها صمتوا جميعاً. رجل واحد ظل يضحك إلى أن نظر إليه فتحولت ضحكاته إلى ما يشبه النعيق.

www.elromancia.com

سألت برايانا أوكونيل: «ما الأمر؟».

استدارت على عقبيها فرأى الدهشة وشرارة ما على وجهها، فسرت في عروقه مشاعر حارة، جامحة وحشية.

قالت بطريقة درامية جعلته يكاد ينفجر ضاحكاً: «هذا أنت».

مدّ يده يمسك بذراعهاوقال: «هذا أنا».

حاولت أن تسحب ذراعها فلم يسمح لها وسألته: «ما الذي تفعله؟».

وكرّر الرجل الذي كان يضحك: «أجل، ما الذي تفعله؟».

استدار جياني نحوه وقال: «مهما كان ما أفعله، فلا شأن لك به. أنا والسيدة لدينا أمور نناقشها».

امتقع لون وجه الرجل وصمت.

نظر إلى برايانا. كان وجهها زهري اللون بقدر ما بدا وجه الرجل الآخر رمادياً. واستطاع أن يرى العرق النابض في عنقها. هل تخافه؟ يجدر بها أن تفعل.

- أيها المجنون، ليس بيننا....

شهقت وهو يضع يده حول خصرها ويطوّقه.

- لا تصعّبي الأمور عليّ.

قالت بصوت مرتجف: «يا سافل».

لكن اللهب عاد إلى عينيها حيث تطايرت الشرارات منهما بسرعة خفقات جناحي الطائر الطنان.

اقترب جياني منها أكثر، قائلاً: «الخيار لك أيتها الأميرة. هل تأتين معي أو أحملك وآخذك قسراً».

قال الرجل الآخر: «بري؟».

فرمقه جياني بنظرة تنمّ عن ازدراء.

همست كلمة لم يظن أنها تعرفها ثم مرّرت لسانها على شفتها السفلى، وشعر بجسمها يرتعش. وحين سحبت يدها من يده تركها

تفعل. كان يعلم أنه النصر الصغير الذي تحتاجه بحيث تتمكن من الاستدارة على كعبي حذائها الخطيرين وتتوجه إلى الباب الأمامي. لم يكن يبعد عنها سوى خطوة واحدة.

هل ناداه أحد باسمه؟ لم يعلم ولم يكن ليهتم أو يأبه أصلاً. لم يكن يكترث إلا لاستدارتها وتطاير تنورتها الصفراء القصيرة وهي تمشي أمامه.

كان المصعد بانتظارهما وكأن الأمر مخطط له فدخلته بعصبية وضربت بيدها على أحد الأزار. دخل هو وراءها وحاولت أن تتنحى جانباً مع إقفال الباب.

قالت بأنفاس متقطعة: «لِمَ لا تدعني وشأني؟ ما الذي تفعله؟».

أجابها بنفاد صبر: «ما كان يفترض بي فعله منذ اليوم الأول للقائنا».

- وما هو ذلك؟ أن تحرجني أمام الضيوف وتخرجني من الحفلة رغماً عني وتدّعي أن ثمة ما يجب أن نناقشه؟ أهذا ما تريد؟ إحراجي؟

- تباً. لماذا لا تتوقفين قليلاً عن الكلام وتسمعيني؟.

- بل إسمع ما سأقوله أنا لك. أنت مجرّد مغرور حقير.

توقف المصعد فجأة فاندفعت تخرج منه بسرعة البرق. وفتح البواب المدهوش الباب في الوقت المناسب وحدّق في جياني يسأله: «هل كل شيء على ما يرام سيدي؟».

أخذ جياني نفساً عميقاً، وأجاب مدركاً أنها الكذبة الأكبر التي نطق بها طوال حياته: «أجل كل شيء على ما يرام».

www.elromancia.com

٣- الفاجعة

لطالما كان فصل الصيف في نيويورك حاراً ورطباً ولا يطاق، وآخر ما قد يفعله شخص عاقل في مثل هذا الطقس هو الوقوف أمام طاولة الكيّ لا سيما مع تعطّل مكيف الهواء. لكن هذا ما كانت بري تفعله.

لم يكن الكيّ يتطلب جهداً فكرياً بل يسمح لأفكارك بالطواف بهدوء على سطح مياه بحور الضجر، وهذا ما كانت بري تقوم به تماماً..

تنهدت بري وهي تسوّي القميص الحريري على طاولة الكي. أخواتها وزوجتا أخويها الغارقات في السعادة الزوجية ما زلن يحاولن تدبير عريس ملائم لها.

مما لا شك فيه أنّ نساء أوكونيل لا عيب في ذوقهن، فالرجال الذين اخترن أن يعرّفنها إليهم كانوا ساحرين ووسيمين من دون أدنى شك.

ليس ذنبهن أن أياً من هؤلاء الرجال لم يكن مذهلاً أو مثيراً كجياني فيريللي... وهي واثقة من أن أياً منهم لم يكن سيئاً بقدره هو.

حاولت أن تنساه، حاولت أن تنسى ما حصل في المصعد، أن تنسى أنها كرهت نفسها لأنها لم تتعامل بشكل جيد مع الأمر. لكنه الآن هنا في رأسها.

هل هي مضطرة لكي ملابسها في مطبخها الضيق؟

أجل إنها مضطرة لذلك لأنها ستذهب إلى مقابلة عمل. كان لديها مقابلة عمل بعد أقل من ساعة، فلِمَ تضيّع وقتها في التفكير بأمور من الماضي؟

أجل، لقد تصرفت بحماقة. أجل، لا تزال الذكرى تجعلها تنقبض. أجل، تمنت لو أنها صفعت جياني فيريللي على وجهه ولكن.. ولكنها لم تفعل.

المقابلة! سوف تفكر في المقابلة، وفي مدى صعوبة إزالة التجاعيد عن السترة البائسة لأن المكواة حارة جداً والطاولة ليست ثابتة على الأرض....

رجلاها أيضاً لم تكونا ثابتتين وهي تتكلم إلى جياني في المصعد...

رائحة حريق خفيفة تصاعدت، فرفعت بري المكواة بسرعة لكن بعد فوات الأوان إذ رأت بقعة بنية كبيرة على الياقة مباشرة.

- تباً، تباً، تباً!

وضعت بري المكواة جانباً. الشفقة هي الوصف الوحيد لحالة امرأة تصب تركيزها كله على أحداث الأسابيع الماضية. أحداث تدور حول رجل فرض نفسه بالقوة عليها.

لو حدث الأمر في زمن آخر ومع امرأة أخرى لذهبت إلى إخوتها مباشرة واشتكت لهم مطالبة إياهم بأن يدافعوا عن شرفها، لكنها لن تفعل ذلك. إنه القرن الواحد والعشرين كما أنها تستطيع تدبر أمورها بنفسها، لكن فكرة إقدام رجال عائلة أوكونيل على ضرب جياني فيريللي ضرباً مبرحاً أغوتها إلى حدٍّ بعيد.

وبغض النظر عن ردّ فعلها تجاهه وأحاسيسها نحوه فقد تجاوبت معه كما فعلت لأنه فاجأها بتصرفه. حسناً، كان ردّ فعلها مبالغاً فيه نوعاً ما والأوصاف التي أطلقتها عليه شنيعة. لكن لماذا لا تكف عن التفكير فيه؟ لِمَ لا تنفك تفكر في نبرة صوته ونظرة عينيه ولمسة يده

على ذراعها؟

أطلقت بري شتيمة كانت لتذهل إخوتها المتحفظين وجعلت من السترة كرة رمتها حتى أبعد زاوية في الغرفة. لكن من يأبه لذلك؟ هي نفسها لم تكن تكترث.

مقابلة العمل، هذا ما كان عليها أن تركز عليه. عليها أن تبدو بأفضل مظهر وتستعد جيداً للمقابلة لكن أنى لها أن تفعل ذلك وصورة السيد فيريللي تشغل رأسها والحرق على السترة يشوه الملابس التي قررت ارتداءها؟

رمت بري السترة على السرير تتساءل ما الذي سترتديه. كانت تحتاج لهذه الوظيفة. فالمبلغ الزهيد الذي لا يزال بحوزتها من وظيفتها الأخيرة كنادلة في مطعم على وشك أن ينتهي.

نزلت في حوض الاستحمام وهي تفكر في أنها الوحيدة في العائلة التي لا تزال تقفز من مكان إلى آخر بحثاً عن العمل الذي ترغب في القيام به طوال حياتها.

خرجت من الجوض ولفّت نفسها بالمنشفة. من كان يرغب في أن يمتهن وظيفة بيع مستحضرات التجميل لسيدات ضجرات يملكن من المال أكثر مما يتصوره عقل؟ أو يمضي حياته في متجر الألبسة الجاهزة يبيعها لفتيات ثريات مدللات. كانت لتصبح إحدى هؤلاء الفتيات لو لم ترفض مساعدة عائلتها.

ورن جرس باب المنزل.

تنهدت بري وهي تحكم لفّ المنشفة حول جسمها وذهبت لتفتح الباب. قامت بفك مئات الأغلال والأقفال التي وضعها إخوتها قبل أن تشق باب شقتها.

قالت: «أجل، سيدة شينلينغ هل من جديد عن...».

علقت الكلمات في حنجرتها. فالواقف بالباب ليس جارتها الطيبة بل مغويها المغرور، الرجل الذي أمضت الأسابيع القليلة الماضية

تحاول أن تكرهه. ها هو يقف ببابها، بشحمه ولحمه، وبكل وسامته.

ما الذي أخرّه كل هذا الوقت؟

واستقامت في وقفتها لتسأله: «أهذا أنت؟ ما الذي تفعله هنا؟».

- عليّ أن أراك.

قال الكلمات بصدق كبير... لكن لِمَ تجعل جملته هذه نبضها يتسارع؟ لا بد أن حرارة الطقس قضت على ما تبقى من عقلها.

أجابت بإشراق: «أشكرك، لكنك تضيّع وقتك. أنا لست مهتمة أبداً...».

- الأمر مهم برايانا، دعيني أدخل.

- لا تحلم بذلك ولو بعد مليون سنة.

- علينا التحدث.

- ليس بيننا ما نتحدث عنه. وإن حدثت معجزة ما وقدّر لنا أن يكلّم أحدنا الآخر فثمة اختراع جديد يدعى الهاتف.

- تباً هذه ليست لعبة. دعيني أدخل.

بدأت بري تغلق الباب وهي تقول: «أنت محق، هذه ليست لعبة، عد إلى منزلك فيريللي وامنح كلينا فترة استراحة و...».

تقدّم جياني خطوة إلى الأمام ودسّ كتفه في شق الباب قائلاً: «برايانا أرجوك».

أوقفتها كلماته. هل قال: أرجوك؟ لم يخطر لها يوماً أن الكلمة موجودة في قاموسه، ليس مع النساء على الأقل. أرادت أن تقول له أن يذهب إلى الجحيم لكن النظرة في عينيه جعلتها تعيد التفكير فقالت ببطء: «هل من خطب؟».

لم يجب عن سؤالها بل قال لها: «افتحي الباب بري».

اكتسحتها قشعريرة وسألت: «ما الأمر جياني؟ ماذا حصل؟».

قال بهدوء: «لقد جئت أخبرك شيئاً، لكن ليس هنا، دعيني أدخل».

www.elromancia.com

بدأ قلبها يخفق بوتيرة غير منتظمة: «قل لي ما الأمر».

مرّر جياني يده في شعره الذي تجعّدت خصلاته ما يدلّ على أنه كرّر الحركة نفسها مرّات عدة. ولاحظت الآن أنه يرتدي سروال جينز وقميصاً وحذاءً رياضياً، وأنه لم يحلق ذقنه.

جياني فيريللي غير حليق ويرتدي ملابس غير رسمية وفي هذه الساعة المبكرة؟

همست تقول: «ستيفانو وشقيقتي...».

ارتعشت ركبتاها، فأطلق جياني شتيمة وأمسك بكتفيها ثم قال بحدّة: «كلا، اسمعيني بري. صهرك وشقيقتك بخير. عائلتك بخير، لا علاقة لهم بالأمر».

- ماذا إذاً... أهو أمر سيء؟ إنه كذلك.

كانت تحدق فيه بعينين واسعتين ووجه شاحب اختفى منه أيّ أثر للغضب. كان يحمل إليها أخباراً سيئة، أسوأ مما يمكن تصوّره.

عليه أن يخبرها أن أفضل صديقة لها توفيت. أخذ جياني نفساً عميقاً وقال: «بري...».

وتقدم خطوة للأمام وهو لا يزال يحيط كتفيها بذراعه وأغلق الباب وراءهما. بدا له وكأنه دخل خزانة وليس غرفة. كان كبيراً جداً على هذا المكان الذي ضاق بالمشاعر المتأججة في صدره.

أمرته بري: «أخبرني».

- اجلسي أولاً.

أدرك اللحظة التي اكتشفت فيها الحقيقة إذ اختفى ما تبقّى من لون في وجهها.

همست تقول: «إنها كارين».

أخذها بين ذراعيه وتقدم بها خطوتين ثم أنزلها ببطء على الأريكة. تكورت في الزاوية تراقبه وكأنه يعرف أسرار الكون وقالت: «أخبرني بما حصل أرجوك. إنها كارين أليس كذلك؟».

اشتدت عضلة فك جياني وهو يقول: «أجل».

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول بصوت متكسّر: «يا إلهي!».

أخبرها بوتيرة سريعة الرواية كلها قبل أن تنهار تحت وطأة الألم والخسارة المفجعة.

- كلاهما؟.

- أجل.

ردّت رأسها إلى الوراء وكأن أحدهم ضربها فاقترب جياني منها وأخذ يديها بين يديه: «أنا آسف برايانا».

أصدرت صوتاً مخنوقاً كان أقرب إلى الضحك فأدرك أنها أولى علامات الهستيريا. وراحت تقول: «لا يمكن أن يحصل ذلك. لا يعقل».

- أخشى أنّ هذا ما حصل.

- لكن كيف؟ كيف يمكن لذلك...

- كانا في صقلية يزوران جدّة توماسو وفيما هما يقودان السيارة على الطرقات الضيقة، وعند أحد المنعطفات صادفا سيارة أخرى سائقها ثمل. فـ...

لم يتمكن جياني من إكمال جملته إذ شعر وكأن أحدهم يخنقه ويسحب الهواء من رئتيه. لكنه تمكّن في النهاية من أن يردف: «كان الأمر سريعاً، لم يتعذبا».

بهت اللون في عيني بري، وانطفأت الشرارة التي تلتمع فيهما وتمنحهما الحياة وهي تقول: «والطفلة؟».

هذا هو الخبر الجيد على الأقل، فالطفلة بخير. أخذت برايانا تبكي بصمت أولاً ثم بشهقات متقطعة مرتفعة تدمي القلب.

أخذها بين ذراعيه وقال بخشونة: «كارا».

كانت تبكي وتشهق فشعر بعينيه رطبتين. أراد أن يبكي لكنه لم يفعل ذاك منذ كان في الخامسة من عمره حين أدرك أن البكاء سيجعل

www.elromancia.com

والده يضربه أكثر.

ودفن وجهه في شعرها وهو يحاول أن يتصور كيف يخبرها الجزء الثاني من الخبر. لا بد من أن الأمر سيصدمها تماماً كما صُدم هو حين اتصل به محامي توماسّو باكراً هذا الصباح لينبئه بالأخبار السيئة أولاً حول موت تومي وكارين ومن ثم عن تفاصيل وصّيتهما.

لم ينفك جياني يسأل المحامي: «هل أنتَ واثق؟» فما سمعه لا يمكن أن يكون صحيحاً.

قال المحامي المنهك أخيراً: «أعطيني رقم الفاكس».

وبعد دقائق كان جياني يحدق في الأوراق التي قد تغيّر حياته. ليس حياته وحسب بل حياة برايانا كذلك.

سألته بري: «متى؟».

كانت الدموع قد توقفت لكنها بقيت بين ذراعيه تدفن وجهها في عنقه.

- منذ يومين. اتصل بي محاميهما هذا الصباح.

- منذ يومين.

أحسّ ببري ترتعش بين ذراعيه. كان جو الغرفة حاراً لكن لعلها ارتعشت بسبب الصدمة وهي التي لم تكن ترتدي سوى منشفة.

وأحس تدريجياً بجسمها الملتصق بجسمه، بنعومة جلدها، ودفء أنفاسها، ورطوبة خصلات شعرها الحريري تدغدغ أنفه: «بري».

أمسك بكتفيها وحاول أن يبعدها عنه لكنها هزّت رأسها ودفنته في صدره. أخذ يفرك ظهرها ويقول مجددا: «بري».

كانت بشرتها حريرية كشعرها الذي يعبق بعطر الزهور. كانت أشبه بواحة حياة في صحراء من القحل والموت.

كان يفهم مدى تأثرها ومع ذلك كره نفسه عندما أحسّ بدقات قلبه تتسارع وهو يضمها إليه.

همست تقول: «كانت كارين أفضل صديقاتي».

- وتوماسو كان أفضل أصدقائي أيضاً.

- التقينا في الجامعة لكن شعرنا وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن.

تنحنح وقال: «تومي وأنا صديقان منذ كنا في العاشرة من العمر».

- لا أصدق ما حدث، لا أصدق وحسب.

- ولا أنا.

أجهشت بالبكاء فشعر بقلبه يتقطع وضمّها إليه بقوّة أكبر وأخذ يهدهدها بين ذراعيه.

- لا احتمل أن أفكر في أنهما رحلا معاً....

زرع قبلة في شعرها يهدئها. وجلس صامتين لبضع لحظات بهدوء ثم رفعت برايانا نظرها إليه تسأله: «ماذا عن الجنازة؟».

أجاب بخشونة: «قامت الجدّة بكافة الترتيبات. إنها امرأة عجوز ولا أظن أنها فكرت في أن لتوماسو وكارين أصدقاء يودّون حضور مراسم الدفن».

- لا يسعنا توديعهما بشكل لائق أيضاً.

أراد أن يقول لها إن هذا لن يشكّل فرقاً لكن الألم الذي شعر به، والألم الذي علم أنها تشعر به جعلاه يجيب بشكل مختلف.

فقال بهدوء: «إنهما يعرفان أننا نحبّهما، ولعلهما لا يزالان يعلمان ذلك».

عادت برايانا تشهق بالبكاء فأخذ جياني يلامس شعرها ووجنتها وأمالت رأسها فجأة تنظر إليه. كانت عيناها كبيرتان تشعّان كالنجوم وهي تقول: «كان لديهما بعضهما البعض على الأقل».

- أجل، إنهما محظوظان.

- من الفظيع أن تكون وحيداً.

همس في أذنها: «فظيع حقاً».

تسارعت دقات قلبه وتاه تحت لمسة يدها على عنقه فشعر برأسه يفرغ من كل شيء إلا من رائحتها وعطرها. كان سعيداً باحتضانها له

وبتغلغلها في أحضانه.

وكانت تنهيداتها تأكيداً على قوة الحياة. لم تشأ أن تتركه كما لم يرغب في أن تبتعد عنه. شعر بأنه يتوه بين أحضانها وكأن العالم بأسره توقف عن الدوران فما عاد يسمع سوى غناء دقات قلبه.

أراد أن يضمها بين ذراعيه لوقت أطول ويملّس شعرها بيده ويتأملها إلى ما لا نهاية ويخبرها أنه لم يقصد أن يتصرف معها على ذلك النحو في الحفلة وأن يثير أعصابها في المصعد أو يحرج موقفها بأي شكل كان.

بدا وكأنها سمعت صدى أفكاره واستعادت ذكرى ما حصل بينهما منذ أن عرفته فانتفضت وأخذت تحملق فيه ومشاعر الاحتقار والاشمئزاز تملأ عينيها. أدرك أن الاقتراب منها في هذه اللحظات خطأ جسيم. اللعنة! كل ما فعله منذ أن التقيا خطأ جسيم.

قال لها فجأة: «برايانا، أنا آسف، لم أكن أقصد...».

- لا تضف المزيد. إرحل... إرحل وحسب.

بدا من كلامها وكأنه مجرد وحش اعتدى عليها. وبدأت مشاعر أخرى تتحرك داخل جياني.

- تباً لك، هل أنت أصم؟ أخرج قلت لك!.

أجاب بعناية: «اسمعي، مثل هذه الأمور تحدث. لا بأس أن تدفني رأسك في صدري وأن آخذك بين ذراعي. قلت لك إنّ مثل هذه الأمور تحدث».

أجابت بنبرة باردة شكّلت اللمسة الأخيرة التي يحتاجها ليكوّن صورة أوضح: «تلك أمور تحدث؟».

قال بوضوح وفظاظة: «الاستسلام للآخر تأكيد على الحياة. هذا ما يفعله الناس عادة في مواجهة الموت».

كان محقاً وبرايانا تعلم ذلك جيداً إذ يستسلم المرء لأسباب لا علاقة لها بالرغبة مطلقاً. وهذا أسوأ ما في الأمر. لقد استسلمت

لعناقه لجميع الأسباب الخاطئة. وكرهت أن تعترف بأنها حلمت بهذا الرجل كثيراً، وأنها لطالما حلمت به منذ صادفته في المصعد. ما حصل الآن لم يعد له علاقة برغبة جياني فيها أو رغبتها فيه بل بخسارة من كانت تعتبرها بمثابة أختها.

رفعت نظرها إليه وقد أتت نبرته باردة: «علينا أن نتحدث».

- أنت مخطىء فيريللي. ليس لدينا ما نتحدث بشأنه.

نهض على قدميه ببطء وقال بصوت فيه كل شيء ما عدا الندم: «سامحيني ظننت للحظة أن أميرة الجليد قد استبدلت بامرأة».

- أفضّل أن أكون مصنوعة من الجليد بدلاً من أكون مندهشة مثلك.

وصل إليها وأمسك بذراعها بسرعة منعتها من الابتعاد في الوقت المناسب وثبتها قائلاً لها: «احذري كارا ولا تجعليني أتصرف معك بقسوة».

- أخرج من هنا.

- هذا كلّما أرغب فيه ولكن ....

- ولكن ماذا؟ تباً لك، ارحل من هنا وإلا فأقسم أني سأرميك خارجاً!.

انتفضت عضلة في وجهه. ورفع يديه عنها فجأة ثم تراجع خطوة: «توماسو وكارين تركا وصية».

- ماذا يعني ذلك؟ لا أتخيل ما علاقتي بالأمر؟.

- من الواضح أن كارين لا توافقني الرأي حولك.

- ما الذي تتحدث عنه؟.

توقف عن الكلام قليلاً ثم ردّ: «لا بد أنها ظنت أن لديك قلباً. فعيّنتك هي وتومي وصية على طفلتهما».

طرفت بعينيها: «ماذا؟».

- لقد عيّناك...

www.elromancia.com

- هذا مستحيل، كانت كارين لتقول...

- مستحيل أم لا، إنها الحقيقة.

غرقت برايانا في الأريكة وقالت: «لكني لست... أعني أني لا أعلم شيئاً عن...».

شبك يديه فوق صدره ونجح في رسم ابتسامة صغيرة على وجهه: «لعلهما تفهما ذلك، فلم يتركا المهمة كلها لك وحدك».

- لست أفهم... لست أفهم.

أخذ جياني نفساً عميقاً وقال: «لقد عيّنانا وصيين. أنا وأنت. سوف نربي هذه الطفلة معاً».

٤ - صاحب القرارات

حدّقت بري في جياني مذهولة. ما أخبرها به مستحيل... لكن الناس لا يمزحون عادة بشأن الموت والجنازات وحتماً ليس بشأن الوصاية على أطفال لا حول لهم ولا قوة.

إنها غلطة! أجل لا بد من وجود خطأ ما. قالت ذلك لجياني، فهز رأسه.

أخذ ورقة مطوية من جيبه وقدّمها لها قائلاً: «هذه ليست غلطة لسوء الحظ، يمكنك أن تتأكدي من ذلك بنفسك».

نظرت إلى الورقة، لم تشأ أن تأخذها منه، لعلها إن لم تفعل لا يصبح الأمر حقيقياً. لكن جياني لم يترك لها خياراً بل هزّ الورقة أمام وجهها كما يهز مصارع الثيران القماش الأحمر أمام الثور.

قال بنفاد صبر: «اقرأيها، وقولي لي بعدئذ ما إذا كان في الأمر خطأ».

كانت الورقة عبارة عن فاكس أُرسل إليه منذ بضع ساعات قط. أمسكت بها بكلتي يديها وبدأت تنفذ ما طلبه إليها. لكن الكلمات أمام عينيها لم يكن لها أي معنى. ظنت في البداية أنها لم تفهم لأنها لا تزال تحت تأثير صدمة ما قاله جياني، لكنها أدركت أن الورقة باللغة الإيطالية.

- لست... إنها مكتوبة بالإيطالية.

تباً! أخذ جياني الورقة من يدها وترجمها لها. سمعت بري كلمات قانونية وتعابير تنهمر فوق رأسها كقطرات المطر.

www.elromancia.com

الكلمات الوحيدة المهمة كانت تلك التي تؤكد ما سبق لجياني أن أخبرها به. لقد عيّن توماسو وكارين كليهما لتولي رعاية ابنتهما.

- . . . لذا فإننا نوكل لبرايانا كلير أوكونيل وجياني فابريزي فيريللي مسؤولية تربية ابنتنا، لوتشيا فيتّوريا ماسيني، واتخاذ القرارات المناسبة بشأنها إلى أن تصل إلى السن القانوني».

رفع جياني نظره إليها. فهو عادة يكره اللغة القانونية غير المفهومة، لكنه لم يفعل هذه المرّة. فقراءة الوصية بلغة موضوعية جعلته يشعر بمزيد من الراحة.

سألها بنبرة سريعة: «هل من أسئلة؟».

- سن ماذا؟.

- السن القانونية، أي العمر الذي يصبح فيه الولد راشداً.

أجابت برايانا بحدّة: «أعلم ذلك. كنت أقصد أي سن هو هذا في إيطاليا؟».

- الثامنة عشرة.

- وهنا؟.

- ظننت أن الفتيات يتزوجن بعمر أصغر في البلاد القديمة تلك.

- يتزوجن حين يتزوجن، وما علاقة ذلك بما نحن فيه؟.

- كنت أفكر وحسب. . . أنت تعلم، لا أقصد السن الذي ستتزوج فيه لوتشيا لكن حين ستصبح ناضجة بما يكفي للزواج، أو لتتمتع بحق التصويت. . . أو. . . كنت أقدّر فقط وأحاول أن أتصور متى سنكف عن اعتبارها قاصراً.

كان جياني يرفع حاجبه وينظر إلى السقف. ومن كان ليلومه؟ فهمت بري أخيراً معنى حركته ولوّحت بيدها وتنهدت.

أجاب جياني وهو يدسّ الورقة في جيبه مجدداً: «حين نصبح كبيرين بما يكفي لنكترث للأمر».

أثارت بري دهشته حين ضحكت بأعلى صوتها، وسألها: «أتجدين

هذا مسلياً؟».

- كلا، بالطبع لا أجده كذلك. بل هي الطريقة التي بسّطت بها الأمر. . .

غرق في الأريكة بجانبها وقال: «حسناً، الأمر حقيقي. فالطفلة لا تتجاوز ثلاثة أشهر من العمر».

- بل أربعة.

- حسناً، هذا جيّد. إنه تقدّم ملحوظ إذ لم يعد أمامنا سوى سبعة عشر عاماً.

التوت شفتا بري فحملق جياني فيها وقال بنعومة: «يا إلهي، أشفقي على الطفلة الصغيرة. هل سنكون أنا وأنت والدين لها؟».

- بل وصيان عليها.

خبت ابتسامته وهو يقول: «والدان أو وصيان، ما الفرق بحق السماء؟ انظري كيف أننا نتساءل كيف حصل هذا في حين أن المهم هو رحيل تومي وكارين».

كانت ابتسامة برايانا قد خبت كذلك واغرورقت عيناها بالدموع.

- بري، بالنسبة لما حصل بيننا. . . .

- لا تكمل.

- أريدك أن تعرفي فقط أني لم أقصد. . . حين أخذتك بين ذراعي لم أكن أنوي سوى مواساتك.

- أجل، أعلم ذلك.

- لم يكن لدي أي نيّة لاستغلال مشاعرك أو استغلال الوضع. لكن الأخبار، الأخبار السيئة المتعلقة بعائلة ماسيني. . . .

- ليس عليك أن تشرح لي الأمر جياني. أفهم لماذا حصل بيننا ما حصل.

أومأ جياني ومدّ يده يمسك بيدها: «هذا جيّد فعلينا أن نكون أكثر تفاهماً من الآن فصاعداً».

أجابت بري بجفاء وهي تسحب يدها: «سنتفاهم إذا نسينا ما حصل».

ينسيان ما حصل بينهما؟ ينسى أنه أخذها بين ذراعيه وتنشق عطرها وسمع دقات قلبها تغني في أذنيه وتنسيه العالم بأسره؟

أجابها بتهذيب: «بالطبع».

أومأت تقول: «جيد، إذاأردنا أن ننجح في المهمة التي تنتظرنا فسيكون عليك أن تعدني أن ننسى ما حصل».

- أفهم ذلك.

- سأرتدي ملابسي ومن ثم نقرر كيف نعالج الوضع.

ابتسم جياني راضياً: «اتفقنا».

ابتعدت عنه وهي ترفع رأسها عالياً بكل أبهة وكأنها ملكة ترتدي حلة ملكية وليس منشفة. عليه أن يعترف بأن مشيتها أنيقة.

إنما عليه الاعتراف أيضاً بأنه أصبح محترفاً في الكذب عندما يتعلق الأمر بها. أولاً، كذب منذ بضعة أشهر مضت حين هربت منه وأكد للبواب أن الأمور على ما يرام وعاد مجدداً للكذب حين أكدّ لها أنه سينسى كل ما حصل بينهما.

لن ينسى مطلقاً، هذا ما كان واثقاً منه خصوصاً وهي معه تذكره بوجودها وبكل ما حدث بينهما.

حافظت بري على تماسكها إلى أن وصلت إلى غرفة نومها لكن ما أن أغلقت الباب وراءها حتى أخذت ترتجف. كان الجلوس على حافة السرير أشبه بالتواجد بين أمواج البحر المتلاطمة.

بدا وكأن الفراش يتمايل تحتها والغرفة تدور من حولها. لم يسبق أن فقدت وعيها من قبل لكنهاشعرت في تلك اللحظة بأنها على وشك الإغماء.

ينبغي ألّا تسمح بحصول ذلك، فإن سمع جياني صوت سقوطها لأصبح بجانبها في غضون لحظات. وآخر ما تريده هو أن يرى ضعفها

أو أن يعرف مدى تأثير هذه الصدمة عليها. كلا، لن تسمح بذلك أبداً. أخذت نفساً عميقاً وحبسته لبضع ثوان، ثم زفرت. وكررت ذلك مجدداً بضع مرّات.

توقف الفراش عن التأرجح تحتها كما كفت الغرفة عن الدوران. طأطأت بري رأسها. فهل بدأت تفقد عقلها؟ أم أن العالم أصبح مجنوناً؟ منذ برهة فقط كانت المشكلة الأكبر في حياتها تتمثل في الحصول على وظيفة. وها هي قد أصبحت وصية على طفلة مسكينة.

ما الذي يعنيه وجود رجل تمقته في شقتها وهو مكلف أيضاً بلعب دور الوصي على الطفلة ذاتها؟

سرت ارتعاشة في أوصالها وهمست لنفسها: «كوني صادقة مع نفسك». فجياني لم يفعل ما فعله من دون سبب. هي من سمح له بأن يتصرف على ذلك النحو بل دفعته إلى ذلك دفعاً، فكلاهما يحمل في قلبه شعوراً ما للآخر وكأنها نيران تحت الرماد.

- برايانا؟.

هزت رأسها بعنف ونظرت نحو الباب. سمعت وقع خطوات جياني تقترب قبل أن تتوقف أمام باب غرفتها. وقفز قلبها من مكانه. هل ينوي استغلال الوضع مجدداً؟ هل أتى ليضمها إليه مجدداً ويواسيها؟.

نظرت بذهول إلى الباب وهي عاجزة عن الحراك تنتظر أن تتحرك قبضته.

- بري؟ سوف أعدّ فنجان قهوة، اتفقنا؟.

كان يطلب الإذن منها لتحضير فنجان قهوة؟ عضت شفتها تكبت ضحكة هستيرية كانت تهدد بالانفجار.

وأجابت من خلف الباب: «لا بأس! علبة البنّ موجودة في الخزانة فوق...».

- لقد عثرت عليها.

هذا يتنافى مع طلب الإذن. انتظرت إلى أن سمعت خطواته تبتعد ثم رمت المنشفة على السرير وقفزت إلى حوض الاستحمام مجدداً لتفرك جسمها بعنف مدركة أن فرك العالم بأسره لن يمحو آثار لمسات جياني الرقيقة أو رائحة جلد وقوّة يديه...

وبعد مرور خمس دقائق كانت ترتدي بذلة زرقاء وقميصاً أبيض مع كعبين عاليين وتربط شعرها إلى الوراء. أخذت تسير بخطوات سريعة نحو المطبخ. كان جياني يستند إلى الطاولة ويحمل فنجان القهوة في يده. رأت فنجاناً آخر فارغاً بجانب إبريق القهوة. مدّ يده إليه لكنها هزّت رأسها، قائلة: «سأسكب فنجاني بنفسي، شكراً لك».

أخبار المأساة أذهلتها فضلاً عن خبر تعيينها كوصي لكن الاستحمام ساهم في توضيح أفكارها وإزالة التشوش. كانت مستعدة للتعامل مع المستجدات الآن.

ما ينبغي عليهما فعله الآن هو إيجاد طريقة لتربية الطفلة وتأمين حياتها وترتيب أمورها من دون أن تجتمع هي وجياني معاً كثيراً.

تنحنح وقال: «حسناً، إليك ما كنت أفكر فيه...».

رفعت بري يدها بوجهه قائلة: «لدي موعد».

ارتفع كلا حاجبيه هذه المرة وهو يسأل متعجباً: «أستميحك عذراً؟».

نظرت إلى ساعة يدها وقالت: «أجل، موعد. في الواقع، كان لدي موعد وسأحاول أن أرى ما إذا...».

- دعيني أستوعب ما تقولين. أخبرتك للتو أن لدينا طفلة علينا تربيتها وأنت تريدين القيام بما تعتبرينه أكثر أهمية؟».

التمعت عينا بري وهي تجيب: «لدي مقابلة عمل فيريللي. أنت تفهم معنى هذا، أليس كذلك؟ إنه ما يقوم به الناس لكسب عيشهم بدلاً من الاسترخاء في كراسيهم وراء مكاتبهم وتحصيل الأموال من الزبائن الأغنياء».

أمال جياني رأسه وقال: «أهذا هو تصنيفك لي ولنوع عملي؟».

تحققت من الوقت مجدداً وردّت: «لسوء حظك. ألتقيك عند السادسة من هذا المساء. ثمة مقهى ما عند...».

- أهذا ما يفعله أخوك؟.

نظرت إليه بدهشة: «أستميحك عذراً؟».

- كالن محام أيضاً، أليس كذلك؟ فهل يسترخي في كرسيه وراء مكتبه ويجمع المال من الزبائن الأثرياء؟.

ما الذي جعلها تقول هذا بحق السماء؟ في الواقع لم تكن تعرف نوع القضايا التي يستلمها جياني.

ارتشف بعض القهوة وأضاف: «أنت تعلمين أن هذا ليس ما أفعله. أنا لا أجمع المال من الأثرياء».

- في الواقع لا أكترث ممن تجمع....

- أعمل في مكتب المدعي العام، وأنا مدّع فدرالي.

- وتتقاضى مرتباً شهرياً يخوّلك شراء بدلات بقيمة ثلاثة آلاف دولار؟.

تعمّد جياني أن يتأمل ببطء سترته القطنية وسرواله الجينز. طرفت بعينيها تقول: «لا أقصد ما ترتديه الآن... بل...».

قال بمنتهى الرّقة: «أعرف ما تقصدينه، كما يسعدني أنك لم تنسي لقاءنا الأخير».

كرهت موجة الحرارة التي بدأت تشعر بها ترتفع إلى وجنتيها، ومقتت نفسها لحماقتها وأجابت: «ما قصدته ببساطة هو أن أعمال المدّعين الفدراليين تسير بشكل جيد هذه الأيام».

هزّ كتفيه بلا مبالاة وقال: «أنا أستمتع بما أقوم به ولا أجني المال من ورائه».

رمشت وقالت: «إذاً أنت فرد آخر من عائلة يولد أبناؤها وفي فمهم ملعقة ذهب».

- مثلك أنت تماماً؟

لم تفته المشاعر التي تتخبط فيها واستمتع باللون الزهري الذي تتركه على وجهها الجميل.

لم يكن يعرف الكثير عن برايانا أوكونيل لكن إلقاء نظرة واحدة على المكان الذي تعيش فيه، يكشف له بسهولة أنها لا تعتمد مطلقاً على عائلتها الثرية.

من السهولة بمكان أيضاً معرفة أنها تفعل كل ما في وسعها لتوضح له أنها لا تطيقه.

قال لها: «اسمعي، أنا أملك الكثير من المال لكني جنيت كل قرش منه بعرق جبيني. عملت كقاضٍ لسنوات عديدة ثم استثمرت مالي بحكمة. بعدئذ، توجّهت للعمل في مجال أكثر ربحاً».

أخذ رشفة أخيرة من قهوتها وأضاف يسألها: «هل من شيء آخر تهتمين بمعرفته».

- لست....

استدار ووضع الفنجان ثم دسّ يديه في جيبي سرواله وهو يقول: «بالطبع تهتمين ولا ألومك على ذلك لأننا سنمضي السنوات الثماني عشرة الآتية من حياتنا معاً».

لقد قصد المزاح معها بكلامه لكنه تفاجأ لرؤية اللون الزهري على وجنتيها ولاحظ أنّ الأميرة الجليدية نزلت من عليائها وتحوّلت إلى كائن عادي مليء بالحياة والدفء.

لكن ردّ فعلها لم يكن كما توقّع، أو بالأحرى كما تمنّى.

- أستميحك عذراً؟.

رد بهدوء: «ثمانية عشر عاماً ناقص الشهور الأربعة بالطبع. هيا أيتها الأميرة، أنت تذكرين حديثنا عن بلوغ السن القانوني».

- لكننا لن نمضي تلك الأعوام معاً.

- ليس بالكامل، فالوالدان الحقيقيان يحصلان على بضعة أسابيع

عطلة من وقت إلى آخر.

فتحت فمها مدهوشة: «ما الذي تتحدث عنه؟».

ما الذي يتحدث عنه فعلاً؟ لقد أتى إليها ورأسه مليء بطرق لتنفيذ وصية توماسو مع الحفاظ على مسافة بينهما، وها هو الآن يتساءل كيف أمكنه التفكير في ذلك. سيكون تصرفه هذا طريقة خاطئة لتكريم ذكرى تومي وكارين وغير منصف بحق لوتشيا. ما من سبب آخر طبعاً يجعله يغيّر خططه.

- يمكننا مناقشة ذلك لاحقاً.

وضعت بري حقيبة يدها على الطاولة وشبكت ذراعيها قبل أن تقول: «بل نستطيع مناقشة ذلك الآن».

- ظننت أن لديك مقابلة عمل.

- كان لدي مقابلة عمل منذ ساعات مضت. لا أظن أن ثمة فائدة ترجى من ذهابي الآن كما أنّ الأخبار التي سمعتها عن... كارين.

تنحنح بعد أن أعادته حقيقة سبب مجيئه إلى أرض الواقع وقال: «أجل، أعرف ما تقصدين».

- دعنا نبدأ بالأمور خطوة خطوة. أين هي الطفلة الآن؟ أهي مع جدتها في صقلية؟.

أومأ جياني وقال: «أجل».

- لا بد أنها مشوشة سيما بعد ما حدث. أقصد....

- أوافقك الرأي، قال المحامي إنه كلما أسرعنا في جلب الطفلة كلما كان أفضل.

حدقت بري في جيانا وقالت متعجّبة: «نجلبها؟».

- حسناً، لن نتركها مع جدّتها.

ابتلعت بري ريقها: «بالطبع لن نفعل، لكن...».

كان من الصعوبة بما يكفي أن تفكر بأنها الوصية على طفلة بالكاد تعرفها.

فأضافت تقول: «إنها التفاصيل وحسب. أعتقد أنها تبدو...».

سألها جياني بخشونة: «قولي لي، هل تعلمين أي شيء عن عالم الأطفال؟».

فكرت بري في وضعها الجديد. إنها تعرف كيف تحضر الحليب للطفل وتغيّر حفاظه فهل يعني ذلك أنها تعرف كيف يربّى الأطفال. أجابت بصدق: «كلا، وهل تعرف أي شيء أنت؟».

ضحك جياني وقال: «وهل أبدو لك رجلاً يعرف عن الأطفال وتربيتهم؟».

قالت ببرودة: «العازب السعيد الذي يهرب من الزواج بأقصى سرعة».

- لا أتصورك الفتاة التي تسعى لوضع تلك الأغلال كذلك.

- أهذا هو رأيك بالزواج؟.

أجاب بوضوح: «بل رؤيتي للعلاقات الطويلة الأمد. أفترض أني سأرغب يوماً ما في تأسيس عائلة».

- ما من حاجة لأن تشرح لي ذلك. فأنا أيضاً لست مستعدة للاستقرار بعد.

- هذا ما افترضته.

- وماذا يفترض بذلك أن يعني؟.

هزّ كتفيه: «ستيفانو يقول إنك أشبه بفراشة تتنقل من زهرة إلى أخرى».

خلعت بري سترتهاوقالت: «ستيفانو يتكلم كثيراً».

شعرت بأن المطبخ صار أصغر مساحة لأن جياني المستند إلى الحائط بارتياح تام سيطر عليه بحضوره. فكرت في متابعة حديثهما في غرفة الجلوس لكنها لم تعد واثقة الآن من قدرتها على الجلوس معه على الأريكة نفسها حيث عانقها منذ ساعات فقط فقالت بسرعة: «هل يمكننا التحدث في مكان آخر؟ ثمة مقهى في الأسفل».

نظر جياني إلى ساعة يده وهزّ رأسه: «لقد تأخرت على إحدى الجلسات. نلتقي لاحقاً، عند الساعة السابعة في مقهى لونا. هل تعرفين المكان؟».

- ذاك الذي يقع عند الشارع ٥٧ بعد اجتياز شارع ماديسون مباشرة، لكن...

- سنتناول العشاء ونتحدث، كيف يبدو لك ذلك؟.

هل يفكر في استغلال الموقف مجدداً كما فعل هذا الصباح؟ وأجابت بلباقة: «لا أستطيع ذلك. يمكننا الالتقاء عند الساعة الخامسة في المقهى».

- هل أنت على موعد مع أحدهم؟.

قال ذلك ببساطة وكأن الأمر لا يعنيه مطلقاً. لا يمكن أن يعتبر لقاء الليلة موعداً بينهما، وعناق الصباح لا يعني له أكثر مما عنى لها. لقد استسلمت بين ذراعيه في لحظة ضعف وسمحت له بأن يضمها بين ذراعيه ليخفف من حدّة المأساة. ولم يحصل هذا إلا بسبب تأجج مشاعرها لما سمعت وليس بسبب رقته وعطفه وهو يضمّها إليه بحنان يواسيها ويهمس في أذنها ويمرّر يده على شعرها ويغمرها برقة لا متناهية.

- برايانا؟ هل لديك موعد؟.

زفرت نفساً محبوساً مرتعشاً ثم قالت وهي تبتسم بتهذيب: «أجل، لدي موعد».

- الغيه.

كان صوته رقيقاً وظنت للحظة أنها لم تفهم كلامه.

- عفواً؟.

كانت كلمته حادّة. هذا هو جياني الذي تعرف، متطلب ومغرور لا يسعه أن يتخيل امرأة تقول له لا. وما فعلته هذا الصباح زاد من اقتناعه بأنه على حق.

حان الوقت لإعادة الأمور إلى نصابها.

وافتر ثغرها عن ابتسامة أخرى لبقة، ثم قالت: «كلا».

ضاقت عيناه وارتعشت عضلة فكه مجدداً ثم استقام في وقفته ببطء ومن دون أن تفارقها عيناه وابتعد عن الطاولة.

- من الذي تواعدينه؟.

- هذا ليس من شأنك.

- إجابة خاطئة كارا.

كان يتقدم منها بخطوات بطيئة وقد ارتسمت على وجهه تعابير يصعب قراءتها. كانت شرارات الخطر تتطاير في الهواء وتملأ المساحة التي تفصل بينهما. وأنبأها حدسها بأن تستدير وتهرب لكن القاعدة الأولى التي تعلمتها هي ألّا تهرب، بل أن تتسمّر في مكانها وتواجه. إظهار الخوف للعدو لا يساهم سوى في زيادة جوعه.

وقفت في مكانها إلى أن أصبح على مسافة قريبة منها ثم تراجعت خطوتين إلى الوراء مع أنها كرهت إظهار ضعفها.

- ليس لديك الحق بأن....

- لدينا مسؤوليات الآن أو أنك قررت عدم تحمّلها.

- لم أقل قط....

- علينا وضع الخطط.

- أعلم ذلك، ما قصدته فقط... لقاؤنا عند الساعة الخامسة لا يعني أني غير مستعدة لتحمّل مسؤولياتي.

- بل مسؤولياتنا.

أجابت بحدّة، : «هلّا كففت عن اللعب على الكلام! أرادتني كارين أن أكون وصية على طفلتها...».

- نحن وصيان مشتركان.

- المزيد من اللعب على الكلام.

- بل المزيد من الحقائق.

مدّ جياني يده ولف خصلة من شعرها على أحد أصابعه. شدّ قليلاً بحيث لم يبق أمامها سوى أن تقترب منه أكثر وهو يضيف: «نحن نتشارك الوصاية على لوتشيا».

- حسناً، عند الخامسة من هذا المساء نستطيع البدء بوضع الخطط.

قال بهدوء وهو يداعب خصلة الشعر: «وما الذي تعرفينه أنت عن الخطط؟ ستيفانو يقول إنك أشبه بالغجر وإنك لا تبقين مطلقاً في مكان واحد أو تثبتين على رأي بل أنت دائمة الترحال».

صفعت بري جياني على يده وقالت: «أولاً كنت فراشة والآن غجرية، هلا تركت شعري من فضلك؟».

لامس خصلة الشعر بشفتيه وقال: «لماذا عساي أفعل؟ أحب ملمس شعرك كثيراً».

- كف عن ذلك، توقف عن هذا الآن.

- كما أحببت ملمسه حين كنت بين ذراعي.

تسارعت إحدى دقات قلبها. ما أرادته في تلك اللحظة هو أن تنشّق الأرض وتبتلعها: «لم يكن ذلك عناقاً بل استغلالاً لنقطة ضعف».

أطلق جياني ضحكة خافتة: «من الذي يلعب على الكلام الآن؟».

- تعلم ما الذي أقصده تماماً فيريللي.

لفّ ذراعيه حولها بحركة سريعة فوجدها متصلبة لكن تسارع دقات قلبها أخبره بأنها تخفي مشاعرها: «أجل، أعرف تماماً ما تقصدينه. في الواقع، سيكون الأمر مختلفاً في المرة المقبلة».

- ما من مرّة مقبلة.

- حقاً؟.

- أجل.

أطلق ضحكة ناعمة مثيرة أخرى تدل على عمق ثقته بنفسه بينما

www.elromancia.com

حاولت هي الإفلات من بين ذراعيه.

- ثمانية عشر عاماً وقت طويل أوكونيل.

- ثمانية عشر...؟.

- أجل، تماماً. إنها المدّة التي سنمضيها معاً.

أجابته بري بتصميم: «لن نمضيها معاً أبداً».

وضعت يديها على صدره ودفعته عنها فأفلتها هذه المرّة وسمعها تقول: «إن المشاركة في تحمّل مسؤولية تربية لوتشيا تعني بالضبط...».

ثنى جياني ذراعيه يسألها: «ماذا تعني بالضبط؟».

لم تشأ الاعتراف بأنها لا تعرف ماذا تعني بالضبط فقالت: «أنت تعرف. حسناً سنلتقي من وقت لآخر لنرتب المسائل سوياً».

كرّر بطريقة جعلتها ترغب في صفعه: «مسائل؟».

رفعت يديها في الهواء: «أجل المسائل كالمدرسة والعطلات وأمور أخرى».

- آه، فهمت.

مرّر جياني طرف إبهامه على طول أنفه فتابعت برايانا حركته بعينيها، هل سبق أن كسر أنفه في ما مضى؟ ذاك الأنف الجميل كما وصفته فالون ووافقتها هي الرأي. غير أنها رأت طيف ندب عليه...

- ... في عربة الأطفال.

طرفت وقالت: «عذراً، لم أسمع ما قلت».

- كنت أقول إن الطفلة ستكون سعيدة جداً وهي تسمع عن ذهابها إلى المدرسة وتمضية عطلاتها وهي لا تزال رضيعة.

حملت نبرته السخرية في طياتها حتى كادت بري تلاحظ كيف حاول منع نفسه من الضحك وهو يضيف: «إنها مجرد طفلة برايانا. أمامها سنوات عدّة قبل المدرسة. أما الآن فعلينا اتخاذ قرارات فورية تتعلق بحياتها».

إنه محق. لِمَ لم تفكر في ذلك؟

- أول ما يخطر لي على سبيل المثال هو تأمين مربية لها.

- أجل بالطبع.

أومأ جياني وهز كتفيه قليلاً: «كما نحتاج لتأمين الملابس المناسبة لها وسرير وكرسي صغير وحفاظات».

- وطعام وألعاب.

- كل هذا كله. لكننا نحتاج أولاً لأن نؤمن لها منزلاً.

أخذ جياني يذرع غرفة الجلوس ذهاباً وإياباً وبري تلاحقه بنظراتها، إلى أن نظر من حوله وقال: «ما من مكان للطفلة هنا».

أجابت بري بنبرة ضعيفة: «كلا، ما من مكان لها هنا».

كانت الأمور تحدث بسرعة. ستكون بالطبع وصية على الطفلة أو الشريكة في الوصاية. لكن لماذا يفكر جياني في جلب الطفلة إلى هنا، إلى شقتها؟ هل هي مستعدة لمثل هذا التغيير في حياتها؟

استدار على عقبيه فجأة ورفع حاجبيه قائلاً: «لن يكون منصفاً أن تتحمّلي مسؤولية العناية اليومية بها كلها».

- أجل، أنت محق. أعني كنت أفكر، لكني لا أرى كيف....

- الشقة التي بجانب شقتي معروضة للبيع، حتى أن أصحابها سيبيعونها مع ما تحتويه من مفروشات. سأقوم بالترتيبات اللازمة لشرائها، وإن حالفنا الحظ ستتمكنين من الانتقال بداية الأسبوع المقبل».

- انتظر لحظة....

- إنها مؤلفة من سبع أو ثماني غرف. سأتصل بأحد المهندسين ليجد طريقة ما لضم الشقتين.

- ضمّهما. تباً لك، اصغي إليّ.

- وأنت محقة بشأن الليلة، فلا داعي لأن نلتقي.

خطر لبري أنه حقق أولى النقاط بشأن المنزل بينما هي تحدق فيه

www.elromancia.com

وهو يذرع الغرفة ويقرر مسار حياتها أو السنوات الثمانية عشرة الآتية منها على الأقل.

- يمكننا مناقشة ما تبقى من الأمور على متن الطائرة.

- أي طائرة؟.

- تلك التي سنسافر على متنها.

مشى نحوها بخطوات سريعة مضيفاً: «يمكننا أن نصل إلى صقلية صباحاً. لديك جواز سفر، أليس كذلك؟».

ردّت بحذر: «جياني، لن أنتقل للعيش في شقة ملاصقة لشقتك. ولن أرافقك على متن طائرتك المتجهة إلى . . .».

- قلت إنك تبحثين عن عمل.

راح رأسها يدور بسرعة. ما الذي يحصل لحياتها؟

- أجل ولكن. . . .

تابع بنفاد صبر: «حسناً، لقد حصلت على عمل الآن. ستهتمين بتفاصيل الرعاية اليومية وسأحضر أنا كل مساء طبعاً. كما سأوظف ممرّضة لمساعدتك. . . ما الأمر؟».

- لا يمكنك أن تقتحم منزلي وتسيطر على حياتي على هذا النحو فيريللي. هل خطر لك للحظة أن تسألني ما إذا كنت أريد كل هذا كله؟ ما إذا كنت أرغب بالانتقال من شقتي؟ أو السكن في شقة ملاصقة لشقتك أو الاهتمام بطفلة؟.

حدّق فيها للحظة بدت دهراً، وانتظرت أن يهزأ بها أو يغضب منها لكنه لم يظهر أيّ ردّ فعل كهذا، بل اكتفى بأن أومأ ثم قال بهدوء: «أنت محقة. كان يفترض بي أن أسألك».

- حسناً، شكراً لك. عليّ أن أعيد النظر في رأيي فيك وفي اعتباري لك كشخص مغرور أناني. . . .

- ها أنا أسألك برايانا، هل تكرمين بتلبية طلب صديقتك المتوفاة أم لا؟.

تصلبت بري وهي تنظر فجأة في عينيه: «هذا غير منصف، أنت تحاول تبسيط المسألة لكنها أكثر تعقيداً من ذلك بكثير».

- أجيبي عن السؤال من فضلك. هل تريدين أن تنفذي رغبة كارين وتوماسو الأخيرة وتمضي حتى النهاية؟.

لكم رغبت في ضربه!

- قلت لك، الأمر ليس بهذه البساطة.

أمسك جياني بكتفيها ورفعها على رؤوس أصابعها يأمرها: «لا تلقي المواعظ. أجيبي عن السؤال وحسب، هل ستقومين بالأمر أم لا؟».

كانت تشعر بكراهية عمياء نحوه ونحو سيطرته المطلقة عليها. وهمست تقول: «سأفعل، تعلم أني سأفعل، لكني سأكره كل ثانية سأمضيها برفقتك، تذكر هذا وحسب. . .».

ضمها يدفن رأسها في صدره ليسكتها عن متابعة الحديث. حاولت الإفلات من بين ذراعيه لكنه أحكم تطويقها وغلغل يديه في شعرها، فاستسلمت أخيراً للنار التي عرفت أنها ستحرقها. وحين تركها أخيراً كانت ترتعش فقال لها: «سأعود عند السابعة. كوني جاهزة لي».

واستدار على عقبيه وتوجه نحو الباب ورحل. اللعنة عليه!

www.elromancia.com

٥ ـ لا تتحكّم بي!

استشاطت بري غضباً لرد فعلها الضعيف لكن الأمر لم يدم طويلاً. وعلى الرغم من أنها تكره الاعتراف بذلك لكن جياني كان على حق. لوتشيا هي الوحيدة المهمة في الموضوع كله ولا أحد سواها، ولم يكن أمامها هي من خيار. ستكون بالطبع وصية على الطفلة، طفلة كارين التي أحبتها. وكارين تريدها أن تربي طفلتها.

كيف يمكن لها أن تدير ظهرها لمثل هذا الطلب؟

لكنها تمنت لو أن كارين فاتحتها بالموضوع. هذا ما خطر لها وهي ترمي ملابسها في حقيبة كبيرة وضعتها على السرير. لم تكن لترفض بالطبع تربية ابنة كارين، لكن الخبر ما كان ليصدمها. أما كان يجدر بكارين أن تذكر الموضوع لها؟ أو أن يعرض عليها توماسو المسألة؟ ربما لا. فثنائي عائلة ماسيني كان شاباً.

سحبت بري فوطة مطوية من جيبها ومسحت عينيها. عندما أعادت التفكير في الموضوع خطر لها أن كارين كانت تنوي إخبارها بأنها عيّنتها وصية على لوتشيا. لقد تحدثتا عبر الهاتف منذ بضعة أسابيع، فقالت لها كارين: «تومي وأنا نخطط للقيام برحلة. لنتناول الغداء معاً بعد أن أعود، اتفقنا؟ أنا وأنت لم نتحدث منذ زمن بعيد».

لا بد أن موضوع الوصاية كان ليشكّل الموضوع الأبرز للحديث.

لم يعد للأمر أهمية الآن فكارين وزوجها رحلا وباتت هي الوصية على طفلتهما، هي وجياني. فكرة من كانت تلك؟ كارين أو توماسو؟ مجرد التفكير في ما حدث قبل مغادرته كان كفيلاً بإثارة حنقها. تخيّلته

واقفاً هناك بارداً يخطط لمسار حياتها وكأنها ملك له.

حاولت أن تقنع نفسها بأنه لا يمكن أن يكون بهذا السوء طالما أن كارين قد وافقت على أن يشارك في الوصاية على الطفلة لكن المنطق لم ينفع كثيراً. لعل توماسو هو من أصرّ على تعيينه لأنه أقدم أصدقائه.

تنهدت بري وجلست على السرير إلى جانب الحقيبة. ما كانت كارين لتستسلم للضغوط فيما خص تربية ابنتها الحبيبة لمجرد أن الرجل صديق قديم. جياني محام، ولعل هذا السبب في تسميته.

لماذا عيّناها هي؟ ماذا رأياً فيها ليعيناها وصية على طفلتهما؟ كانت هي وكارين صديقتين حميمتين وكارين ليس لديها عائلة تلتجىء إليها، لكن كيف أمكنها اختيار بري لتربية ابنتها في حين أنها تعرف عيوبها جيداً؟.

لقد عاشتا في غرفة واحدة أيام الجامعة وأصبحتا تلتقيان على الغداء والعشاء منذ ذلك الوقت. وكانت كارين تعرف أكثر من أي شخص آخر أن بري لم تثبت بعد على رأيّ في ما يتعلق بحياتها. كارين تعرف أن صديقتها تتنقل من وظيفة إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى. فهل هي الشخص المناسب ليكون وصياً على طفلة؟ إلا إذا...

منذ بضعة أشهر، ذهبت هي وكارين إلى إحدى المحاضرات التي تم الترويج لها على أنها حدث هام. ابتسمت بري وأغمضت عينيها تتذكر بعد ظهر ذاك اليوم الذي أمضياها معاً.

بعد مكوثهما لعشر دقائق في المحاضرة قررتا الرحيل.

تحدثتا ومرحتا وانتهى بهما المطاف في مطعم إيطالي صغير. كانت بري تلعق الجبنة عن أصابعها وتقسم أنها أفضل بيتزا تناولتها يوماً، حين قالت كاري برقة: «آه بري، أنا جدّ سعيدة».

ابتسمت بري وقالت: «ومن كان ليقول عكس ذلك؟».

- تعلمين كيف اعتدنا أن نقول إننا لا نفهم رغبة الأخريات في العيش مع رجل.

أجابتها وقد ذبلت الابتسامة فوق ثغرها: «بل رغبتهن في السماح للرجل بالسيطرة على حياتهن. هل غيّرت رأيك؟ وأصبحت تعتقدين أن السماح بحدوث ذلك أمر جيد؟».

- بل أقول لك إننا كنا مخطئات. فتومي وأنا نتشارك الحياة، وهذا ما أريده لك حبيبتي. هذا ما تستحقينه.

فكرت بري بعشرات الإجابات، لكن كيف تجيب أفضل صديقة لها وقد اعترفت للتو أنها تؤمن أنها سعيدة لذلك؟

وقفت برايانا وأحكمت إغلاق الحقيبة. أكانت كارين قد اختارتها وصية تلك الليلة؟ هل كانت صفاتها المفترضة من رقة وكرم وطيبة قلب هي ما تبحث عنه كارين عندما اختارتها كوصية على ابنتها؟

ما يسعها فعله الآن هو أن تأمل بأن تكون صفاتها هذه هي ما تحتاجه لتحمّل مسؤولياتها وللحرص على جعل السيد فيريللي يدرك أنهما متساويان.

إن كان يظن أنه يسيطر على الأمور كلها فسوف يتلقى مفاجأة.

عند الساعة السابعة تبين أن برايانا هي من ستتفاجأ.

قال لها جياني عندما ودّعها: «كوني مستعدة لي».

وحين رنّ جرس الباب كانت مستعدة فعلاً له، وليس لرؤية رجل في متوسط العمر يحييها بابتسامة لائقة:

- عمت مساء آنسة أوكونيل. أدعى تشارلز وأنا سائق السيد فيريللي».

لِمَ عساها تتفاجأ؟ لا بد أن يكون لديه سائق وسيارة فخمة. أخذ تشارلز حقيبتها فلحقت به إلى سيارة مرسيدس ضخمة فخمة.

جعلها ذلك تبتسم، فسألها جياني ما أن صعدت إلى المقعد الخلفي: «هل من شيء مضحك؟».

ردت وهي تضع يديها في حضنها: «لا شيء».

كان يمكن توقع مظهره وسيارته وطريقه لبسه. ها قد اختفت السترة القطنية وسروال الجينز ليستبدلا ببذلة رسمية رمادية وقميص أبيض وربطة عنق. حتى أن الكومبيوتر المحمول في حضنه أكمل لوحة الرجل الثري المهم الذي يبذل ما بوسعه ليبدو مهماً وثرياً.

كان بغاية الوسامة لكن ما علاقة ذلك بوضعها الآن؟

- يسعدني أن أعرف أنك سريعة.

إنها ليست حمقاء لتعتبر كلامه إطراءً.

- هل يعني ذلك أنك كنت تظنني بطيئة؟.

- من المبكر جداً أن أخبرك ما أعتقد وأظن، فعلى الرغم مما حدث بيننا نحن لا نعرف بعضنا جيداً.

كانت كلماته صريحة بقدر ما هي حقيقيّة، وقد نطقها بنبرة خالية من المشاعر كمن يتحدث عن حال الطقس. لكنها ظنت أنها رأت شرارة تلتمع في عينيه اللتين تبعثان الحرارة والدفء في أوصالها.

- لا أنوي مناقشة أحداث الصباح.

- قصدت بكلامي الحديث الذي جرى بيننا صباحاً.

لم يكن هذا ما قصده وهي واثقة من ذلك تماماً كما هي واثقة من أنه يحاول إغاظتها. لن تقع في الفخ هذه المرّة.

وأجابت ببرودة أعصاب: «أنا أيضاً قصدت الحديث وليس الأحداث. لقد انحرفنا عن مسار القضية الأكثر أهمية. نحن في هذا معاً، سواء أعجبنا ذلك أم لا ونحتاج لوضع بعض الشروط».

- على سبيل المثال؟

- على سبيل المثال، من الآن وصاعداً لن تتخذ القرارات من دون استشارتي.

رفع حاجبيه بمكر ليقول: «وهل سبق أن فعلت؟».

- سنطير الليلة إلى صقلية على متن الطائرة التي تملك. وحين

www.elromancia.com

نعود سأنتقل للعيش في الشقة التي اخترتها أنت وأهتم بلوتشيا بمساعدة ممرضة أنت عيّنتها.

ثم كشرت بري في شبه ابتسامة وسألته: «هل نسيت شيئاً؟».

لدهشتها، أطلق جياني ضحكة وقال: «لا أظن».

-حسناً، يجب أن يتوقف ذلك. لا أحبّ أن يملي عليّ أحدهم ما أفعل.

- والسبب؟.

أتى سؤاله بغاية اللباقة لدرجة ظنت في البداية أنه جدي. لكنه جدي بالفعل.

- لأني أستطيع أن أفكر وأتخذ القرارات بنفسي يا فيريللي مهما صعُبَ عليك تصديق ذلك.

أجاب بوضوح: «معظم النساء اللواتي أعرف يفضلن أن يعتني بهنّ أحدٌ».

ردّت بري بنبرة ثلجية: «حسناً، لا أحتاج لأن يهتم أحد بي، ولست كأي من النساء اللواتي عرفتهن. إننا نتحمل المسؤولية سوياً ما يعني أننا نتخذ القرارات معاً».

- لا أحب القرارات الجماعية وهذا أحد الأسباب التي منعتني من الانضمام إلى شركات قانونية كبرى.

- لم أسألك ما الذي تحبّه، بل أخبرتك كيف يجب أن تجري الأمور بيننا. نحن في هذا معاً سواء أحببت ذلك أم لا، وسنجري كل ما يلزم من التعديلات لنجعل الأمور تنجح.

أغلق جياني الكومبيوتر المحمول وثنى ذراعيه فوق صدره ثم رمق برايانا بنظرة متأملة. لقد اختارت ملابس تناسب جديّة الموقف، فارتدت بذلة بيضاء وحذاءً أبيض. بدت شخصاً جديراً بالثقة، ويتحمل المسؤولية و... جميلاً.

اللعنة!

أمضى طيلة فترة بعد الظهر يقنع نفسه أن ما حدث بينهما صباحاً جعله يطردها من تفكيره. لكن يا لها من كذبة! جلّ ما فعلته أحداث الصباح هي أنها أججت مشاعره نحوها.

كيف لا وقد أخذها بين ذراعيه بكل ما لديه من حنان وعطف وسمع دقات قلبها المتسارعة وهي تذوب بين يديه وتنشق عطرها وأنفاسها. رغب في إعادة الكرّة على أن يأخذ وقته تماماً هذه المرّة ويشعر بها مجدداً ترتعش فوق صدره وبين ذراعيه.

- هل سمعت ما قلته لك؟.

كانت تنظر إليه والتحدي يملأ ملامحها ما منعه من تحديها بدوره. يفترض أنها على حق فعليهما العمل على القضية كندّين إذا أرادا أن ينجحا في المهمة الموكلة إليهما، لكن ما أخبرها به صحيح. كان يحب أن يلعب دور الآمر الناهي في أي علاقة له رغم أنه يعلم أنه موقف قديم الطراز. لكنه ولد في صقلية وكبر في حيّ أميركي حيث لا تزال التقاليد القديمة لبلاده متجذرة.

ضاقت عيناه وهو يتذكرها بين ذراعيه منذ بضع ساعات فقط. لم تكن تطالب بالمساواة حينها بل كانت متلهفة ليواسيها.

تنحنح جياني وطرد الصور من رأسه. الطفلة، ابنة توماسو هي كل ما يهمّ الآن.

قال بهدوء: «سمعتك، وأنت محقة. ما كان يجب أن أتخذ القرارات من دون العودة إليك».

كاد ينفجر ضاحكاً لرؤية مدى دهشتها.

- كلا، كلا ما كان يجب أن تفعل.

أمال رأسه نحوها ليستمتع برؤيتها تناضل وطرح عليها سؤالاً: «إذاً، أي الترتيبات ترغبين في تغييرها؟».

كانت شجاعة. إنها تمتلك من الشجاعة والجمال ما يجعل أي رجل يترنح، وهذه تركيبة مثيرة للاهتمام.

- لعلك كنت تفضلين الانتظار بضعة أيام قبل السفر إلى صقلية؟.
- بالطبع لا، ما قصدته ....
- أم كنت تفضلين أن تصعدي على متن طائرة ركاب عادية بدلاً من الطائرة الخاصة؟.
- لا تكن تافهاً! تعلم أني لم أقصد....
- أهي ترتيبات السكن التي تزعجك؟ هل كنت تفضلين أن أشتري شقة في المبنى حيث تقيمين؟

احمرّ وجهها فسارع يبتسم لها قبل أن يضيف: «يبدو المكان مثالياً لتربية طفلة، أليس كذلك؟».

- اتفقنا، لقد حققت مرادك ولكن....
- لكننا في المستقبل سنناقش خياراتنا عندما نود اتخاذ قرارات تتعلق بنا نحن الاثنين.
- بنا، نحن الاثنين؟ بنا نحن الاثنين؟
- أقصد القرارات التي تتعلق بلوتشيا. إنها إحدى حسنات السكن في شقتين متلاصقتين. يمكننا مناقشة الأمور صباحاً عند تناول الفطور، أو مساءً عند تناول العشاء....

توقف عن الحديث في منتصف الجملة. ما الذي يقوله بحق السماء؟ كانت تفكر في الأمر ذاته كما استطاع أن يقرأ على ملامح وجهها. كان يرسم صورة من التآلف والانسجام بعيدة عن طبيعة العلاقة بينهما، فعلاقتهما قانونية بحتة. سيقيمان قرب بعضهما البعض بهدف خدمة مصالح الطفلة، لكن هذا بالكاد يعني أن يعيشا معاً.

قال لها: «دعيني أوضح الأمر. سنلتقي مرّة صباحاً ومرّة مساءً في الأسبوع لنتحدث عن المشاكل ونضع الخطط. كيف يبدو لك ذلك؟».

ومع أنه اتخذ القرار وحده مجدداً، إلّا أنّ الفكرة بدت منطقية:

«لا بأس».

أوما جياني: «عندما نعود إلى نيويورك سأتصل بإحدى الوكالات

للحصول على ممرضة للطفلة».

- بل مربية.
- حسناً سوف أجري مقابلات مع المرشحات للوظيفة إلى أن يقتصر عددهن على اثنتين ويمكنك عندئذ... ماذا؟

قالت له: «بل سأتصل بإحدى الوكالات وأقابل عدداً من المرشحات حتى يقتصر عددهن على اثنتين فتختار أنت منهما».

انتظرت بري ردّ فعله. غدت عيناه قاتمتين وتصوّرت أنه على وشك الانفجار، لذا كانت دهشتها عظيمة حين أخذ نفساً عميقاً وزفر ببطء وقال: «اتفقنا».

لكنه لم يكن سعيداً بما حدث. كانت واثقة من ذلك نظراً لطريقة فتحه للكومبيوتر المحمول وحملقته بالشاشة وعدم نطقه بأي كلمة أخرى.

وبعد خمس ساعات حطا على أرض باليرمو. جلس خلف مقود سيارة الفيراري السوداء اللماعة التي كانت تنتظر في المرآب، وجلست هي في المقعد بقربه.

ما أن قال: «احزمي» حتى أجابته بحلاوة: «لست بحاجة لرجل يخبرني متى أضع حزام الأمان».

- ما تعنينه بقولك هذا هو أنك لا تحتاجين لرجل لأي شيء كان؟.
- ها قد فهمت أخيراً أن....

زمجر وهو يدير المحرك: «ضعي حزام الأمان اللعين».

خطر له وهو يقود مسرعاً: توماسو، يا صديقي القديم ما الذي ورّطني فيه بحق الجحيم؟

٦ - رجل المافيا

كانت قطرات المطر ترصّع الطريق الساحلية الزلقة المؤدية إلى جبال مادوني، والبخار يتصاعد من الشوارع المعتمة التي تخترقها سيارة الفيراري.

كانت برايانا تحدّق أمامها وتطوي يديها بشدة في حضنها. لم ينطق جياني كلمة أخرى منذ أن أمرها بغضب أن تشد حزام الأمان وعاندته. كانت غاضبة من نفسها لسماحها له بأن يأمرها وغاضبة منه لمعاملتها على هذا النحو.

ما حدث بينهما أشبه بالصدمة. وقد حدثت الأمور سريعاً لكن الشعور الذي خلفته كان عميقاً.

استرقت نظرة إلى الرجل الجالس بقربها. كان يقود بسرعة عند المنعطفات وعلى الطرقات المستقيمة لكنها لن تطلب منه أن يبطىء أبداً. سيفسر ذلك على أنه دلالة ضعف ولا يمكن أن تدع ذلك يحصل. لقد قسا عليها كثيراً من قبل ليفرض عليها وجوده وقوته كرجل ولم تتذمر.

أسندت بري رأسها إلى ظهر المقعد.

ما الذي خطر لتوماسو وكارين حتى يضعا شخصين مختلفين في مثل هذا الموقف؟ لا يعني ذلك أنها تأبه لمشاعر جياني لكنه مستاء من الأمر بقدرها هي، وكان مثلها أيضاً ينظر إلى المستقبل ويدرك كم يستحيل ترتيب الأمور. لعب دور الوصي على طفل مع شريك في الشقة المجاورة سيكون كابوساً بالنسبة للاثنين معاً.

سيؤثر في مجرى حياتها، وستؤثر في مجرى حياته.

ماذا عن أصدقائها وزوارها؟ ماذا لو أرادت دعوتهم إلى منزلها؟ ماذا لو تعرفت إلى أحدهم ودخل حياتها؟ كيف تدعوه إلى منزلها وتخرج معه بحريتها في حين أنه يقيم في الشقة المجاورة تماماً؟ ماذا عنه؟ ماذا عن حياته؟ ماذا لو تعرّف إلى إحداهن؟

كفي عن ذلك! توقفي عن التفكير بهذه الأمور!

ستتعلم كيف تتعامل مع الوضع لكنها لن تسمح لجياني بأن يضع خططاً لحياتها وبأن يراقبها ليحرص على تنفيذها املاءاته.

هذا مستحيل!

كان جياني محقاً بشأن بعض الأمور، كالشقة مثلاً. في الواقع لم تكن ترغب في تربية الطفلة في شقتها لكن هذا أرحم من العيش تحت مراقبته.

لا بد أن توماسو وكارين وضعا تصوّراً شاملاً لكيفية تربية لوتشيا. من المنطقي أنهما أراداها هي أن تهتم بالطفلة وحاجاتها اليومية في حين يهتم جياني بالقضايا المالية والقانونية.

لم يكونا مجبرين على العيش تحت سقف واحد لإنجاز المهمة، ستنتقل من شقتها لكنها ستقرر بنفسها إلى أين. لن يتخذ أحد هذا القرار عنها وستخبره بذلك حين يصلا إلى وجهتهما التي يفترض أن تكون في مكان ما قريب.

ما اسم البلدة التي يقصدانها؟

- سيفالو.

أدارت بري وجهها نحو جياني. هل كانت تتحدث بصوت مرتفع؟

- تجاوزنا للتو لوحة كتب عليها سيفالو لكني لم أنتبه كم تبعد، فهل لاحظت أنت؟.

أنّى لها أن تنتبه فيما هي تفكّر في ما حدث لحياتها؟ أجابت بري بحدّة: «الظلام دامس في الخارج وأنت تقود كالمجنون. إن أردتني

أن أقرأ اللوحات فعليك أن تبطىء».

- أحب القيادة بسرعة.

على الرغم من الليل الحالك تمكنت من رؤية عضلات فكه المتوترة في دلالة واضحة على غضبه. ما الذي يثير غضبه؟

قلّدته بري: «أحب القيادة بسرعة. يا له من جواب يدّل على نضج».

- أعرف هذه الطريق، وقد سبق لي أن قدت عليها.

نظرت إليه مجدداً وقالت: «لم تخبرني أنك التقيت جدة توماسو. كيف تبدو؟».

- لم يسبق لي أن التقيتها لكن تومي قال لي إن مياهاً جليدية تجري في عروقها بدلاً من الدم.

- لكنه يحبها وإلا لما قطع كل تلك المسافة لزيارتها والسماح لها برؤية طفلته؟.

هزّ كتفيه وأجاب: «إنه الواجب والشرف والحماقة. لم يكن تومي يحب تلك المرأة. جلّ ما أراده هو القيام بما هو صحيح».

قالت بري بنعومة: «ما هو صحيح! ها هما الآن هو وكارين...».

- قد توفيا، وما يهمّ الآن هو طفلتهما. ويعود لي تكريمهما وتنفيذ رغباتهما.

ردّت بري ببرود: «تقصد يعود لنا».

غيّرت وضعية جلوسها في المقعد وحدّقت أمامها قبل أن تضيف: «كم تنسى بسرعة أن الوصية ذكرت اسم كل من جياني فيريللي وبرايانا أوكونيل».

- لا بأس. يعود الأمر لنا.

في الواقع، شك في أن تسلّم جدّة توماسو بالواقع، وانتابه شعور بأنه سيضطر للمناورة في الساعات القليلة المقبلة. كان يعرف ما يكفي

عن صقلية والصقليين وعاداتهم البالية أحياناً في الحفاظ على الشرف. وجعله ذلك يقلق، لكن لِمَ عساه يخبر بري بالأمر الآن؟.

وانعطف نحو الطريق التالية ثم سارع يتجاوز السيارة أمامه، قائلاً: «حذرني محامي تومي من أن السيدة ماسيني قد تحاول منعنا...».

- منعنا من ماذا؟ من أخذ الطفلة؟ لِمَ لم تخبرني من قبل؟

تحقق من المرايا مجدداً وانعطف يميناً: «ما من شيء يستحق أن أخبرك به قبل أن نتأكد من صحة الأمر. أجريت بعض الأبحاث بعد ظهر هذا اليوم، أو بعد ظهر الأمس بالأحرى. تباً، لا أتذكر متى كانت آخر مرة نمت فيها».

نظر إلى ساعة يده وضحك من نفسه.

بري أيضاً لا تتذكر متى كانت آخر مرة نامت فيها، لكن هذا لا يهم الآن.

سألته بنفاد صبر: «ماذا بعد؟ أجريت بعض الأبحاث. وماذا بعد؟ لا تقل لي إن تلك المرأة التي كان تومي يكرهها ستطالب بتربية ابنته».

نظر جياني إلى بري فرأى أنها تبعد خصلات شعرها المتطاير عن وجهها وعيناها تلتمعان.

ثمة الكثير من العواطف الجياشة، الكثير من المشاعر المتدفقة، عليه أن يعترف أن شيئاً ما في معانقة هذه المرأة للحياة يثير دهشته وإعجابه.

ما من حلول وسطى معها وما من تراجع. لم يعد هناك سبيل إلى التراجع بعد أحداث هذا الصباح التي قلبت كيانه.

أمر نفسه أن ينسى. كانا متورطين بما يكفي بفضل بنود وصية توماسو التي تنص على ضرورة التعامل مع بعضهما على مدى الأعوام الثمانية عشر. ثمانية عشر عاماً؟ يعرف زيجات لا تطول إلى هذا الحد! الطريقة الوحيدة لإنجاح هذه العلاقة تكمن في إبقائها غير شخصيّة. ما من تواصل بينهما إلا في ما يخص مصلحة لوتشيا.

لبرايانا حياتها كما لديه هو حياته، لكن الأحمق وحده يستطيع أن يدّعي أن الأمور لن تتغير. كيف سيمضي بحياته ويفكر في نساء أخريات فيما لا يفصله عن برايانا سوى حائط؟ ماذا عن برايانا؟ ماذا لو تعرّفت إلى أحدهم؟ ماذا لو أصبحت تدعوه لزيارتها في منزلها؟ هل هذا ما تنوي القيام به، حين يصبحان جارين؟ وتصلّب فك جياني. لن يحصل هذا أبداً، ما من رجال تتعرف إليهم أو تسمح لهم بالمجيء إلى شقتها. انتهى الموضوع.

- ما خطبك فيريللي؟

طرف بعينيه ونظر إلى بري قائلاً: «آسف، كنت أفكر في جدّة تومي».

- حسناً وأنا كذلك. لهذا السبب سألتك إن كانت تستطيع أن تخالف بنود الوصية.

- من الناحية القانونية؟ كلا لا تستطيع.

- حسناً، إذاً....

- لكن إن وجدت طريقة لتأخير تنفيذها فقد تفعل.

- ثم؟ ماذا نفعل نحن عندئذ؟.

- سنفكر في حلٍ ما يجعلها تقتنع بأنها تخوض حرباً خاسرة.

- حلّ مثل ماذا؟.

أجابها بصدق: «لا أدري، هذا إن لجأت إلى التأخير».

غرقت بري في مقعدها وقالت لنفسها أكثر ما كانت تتوجه إليه بالحديث: «كنت أتخيل طوال هذا الوقت عجوزاً تلبس الأسود من رأسها حتى أخمص قدميها، وتجلس أمام كوخها على أرض مفروشة بالحصى في قرية تعود إلى ألفي سنة مضت تنتظر قدومنا».

ضحك جياني وقال: «تأثرت بالأفلام كثيراً يا كارا مع أني أعترف أن صقلية تشبه الأفلام من نواحٍ عدة».

سألته: «هل أتيت إلى هنا من قبل؟».

انعطف كي يدخل ممراً آخر متجاوزاً سيارة تسير ببطء وقال: «رأيت بعض الصور. لا أتوقع أن يكون منزل ماسيني قصراً، لكني أظن أن عليك أن تتخلي عن فكرة الكوخ الواقع في قرية صغيرة».

- هذا غير موجود إلا في الأفلام، أليس كذلك؟.

- وفي الحقيقة أيضاً، وفقاً للمكان الذي تولدين فيه، وسواء أكنت غنية أم فقيرة. جدي أنا من قرية لا تبعد كثيراً من هنا عن هذا المكان لهذا السبب أعرف الطريق جيداً.

- وهل لا تزال لديك عائلة هنا؟.

هز رأسه وأجاب: «كلا، لكني زرت المكان بضع مرات. أردت أن أعرف من أين أتيت».

- ثم ماذا؟.

أجاب وهو يبتسم: «وجدت أن البلدة مثالية كموقع لتصوير بعض الأفلام السينمائية».

سألته بري بخفة: «هل علينا إذاً مناداتك بدون فيريللي».

قال جياني من دون أي أثر للمرح في صوته: «لو أن جدّي التزم بالحياة التقليدية لناديتني بهذا الاسم. نحن نقترب من لوحة أخرى. سأتمهل، حاولي قراءتها هذه المرّة».

رفع قدمه قليلاً عن دواسة السرعة فسارعت بري إلى لصق أنفها بزجاج النافذة. وتمكنت من قراءة اللوحة.

- تقول اللوحة إننا نبعد عشرين كيلومتراً عن سيفالو.

- جيد. لا بد من وجود إشارة أخرى تدل على البلدة التالية. ابقي عينيك مفتوحتين.

- هل كنت جاداً بشأن جدّك؟.

- جدّنا الأكبر. نعم، تماماً.

- هل كان من المافيا؟.

- كان في عصابة صغيرة. ثمة تساؤل حول ما إذا كان في المافيا،

www.elromancia.com

لكنه كان رجلاً ذا أخلاق عالية. إنها مزايا خاصة بالعائلة.

لا عجب من سلوك جياني المتعجرف فالغرور يسري في عروقه.

- ها قد تجاوزنا لوحة أخرى. هل تعود لسيفالو؟

هل هي كذلك؟ لم تلاحظ. كانت غارقة في تخيّل جياني كعضو في عصابة. كان ليبدو رائعاً وخطيراً نوعاً ما ومثيراً.

عادت تستقيم في جلستها. من يكترث إن كان فرداً في عصابة أم لا. وقالت بانزعاج: «عدت تسير بسرعة. أتى لي أن أقرأ أي لوحة سيما بلغة لا أفهمها».

نظر إلى لوحة قياس السرعة أمامه وقال: «لا ينبغي أن تعرفي اللغة الإيطالية لتتمكني من قراءة لوحة. كما أني لست مسرعاً».

- أنا واثقة من أن مقتلنا على الطريق سيعود بالفائدة على ابنة كارين.

رمقها جياني بنظرة حادّة لكنها محقة. فالطفلة ومسؤوليتهما تجاهها هي كل ما يهم. استمر يقود بالسرعة ذاتها لبضع لحظات ليعلم برايانا أنه القائد الذي يمسك بزمام الأمور، لكنه عاد ورفع قدمه قليلاً عن دواسة السرعة، ونظر إليها قائلاً: «أنت محقة. مصلحة لوتشيا هي ما تهمنا الآن. ما الذي تعرفينه عن الأطفال؟».

- ليس بالكثير.

- لكنك. . . .

- امرأة؟.

كاد جياني ينفجر ضاحكاً للحدّة في نبرتها: «أنت خالة وهذا يجعلك أخبر مني».

تنهدت بري واسترخت في مقعدها قائلة: «لا أعرف سوى أمور بسيطة. فالأطفال يبكون، يبتسمون، يأكلون ويشربون، وينامون. هل هذا بالشيء الكثير؟».

- نحتاج لشراء بعض الأغراض.

- مثل ماذا؟.

- عربة للطفل.

- مقعد للسيارة.

أدار جياني رأسه لينظر إلى المقعد الخلفي غير الموجود وقال: «مقعد للسيارة».

- ثمة قوانين في بلادنا تنص على وضع مقاعد للأطفال في السيارات كما أني أفكر بالرحلة الجوية. أستطيع حملها بينما تقود أنت في طريق العودة إلى باليرمو، إذا وعدتني بأن تقود على مهل، لكننا سنشتري مقعداً لنضعها فيه في الطائرة.

ما الذي يجري في حياته بحق الجحيم؟ قال لها: «أفترض أن علينا مناقشة كيفيّة التعامل مع جدّة توماسو».

رفعت بري يدها في الهواء وحاولت دسّ خصلة من شعرها وراء أذنها وهي تقول: «نناقش ماذا؟ أتعني أنك لن تقدّم لها عرضاً لا يمكنها رفضه؟».

- هذا مضحك جداً. أتريدين أن تلعبي دوراً كوميدياً أم أن تتحدثي عما سنفعله لدى وصولنا إلى منزل السيدة ماسيني؟.

تنهدت مجدداً ورفعت يدها تفرك صدغيها. الرحلة الطويلة واليوم الأطول سببا لها صداعاً أليماً.

- بل التحدث. ما الأمور الأخرى التي تعرفها عن السيدة؟.

هزّ جياني رأسه وأجاب: «لا أعرف الكثير. ما قلته لك فقط».

- إذن السبب الذي منع توماسو وكارين من تعيينها وصية على ابنتهما هو عدم محبة توماس لها.

- صحيح، كما أن لوتشيا مواطنة أميركية وهما يريدان لها أن تتربّى في بلدها.

- حسناً، لا يسعني أن أرى كيف يمكن للسيدة عدم الموافقة على ذلك.

www.elromancia.com

نظر جياني إليها وقال: «يصح هذا في عالم يسوده المنطق، لكننا لسوء الحظ لا نعيش في عالم كهذا».

- سيكون كذلك إن توليت أنت إدارة شؤونه.

- وماذا يفترض بذلك أن يعني؟.

- أنت تعلم. ستسود العدالة وتسير الأمور على خير ما يرام. ستنظم أنت الأمور.

- ما من خطب في التنظيم.

- وما من خطب في العفوية.

- ألهذا السبب لا تستطيعين الالتزام بوظيفة واحدة طويلاً؟.

- ألهذا السبب تريد أن تدير شؤون حياتي؟.

نظر أحدهما إلى الآخر وأطلق جياني ضحكة ثم قال: «أنت وأنا نشبه الزيت والنار. لا أعلم بما كان توماسو وكارين يفكران حين اختارانا وصيين على ابنتهما. أظن أن الطريقة الوحيدة المجدية مع الجدّة هي الحذر. سندعها تتحدث أولاً لنعرف نواياها».

- ألن تستقبلنا عند الباب وتخبرنا مباشرة بالأمر.

- هذه صقلية يا برايانا حيث العادات القديمة لا تزال سائدة.

- هل أتينا إلى مكان يعود إلى حقبة زمنية قديمة؟

- بل أتينا للتعامل مع الحقائق. الحقيقة الأولى هي أن تومي لم يكن يحب السيدة، وهذا يعني الكثير لأن تومي ليس من النوع الذي يكره. الحقيقة الثانية، هي أن محامي تومي سبق أن حذرنا.

- وهو الأمر الذي خطر لك للتو أن تخبرني به.

تجاهل تعليقها اللاذع وتابع: «الحقيقة الثالثة، هي أنه من الأفضل أن تتركيني أدير الدفّة».

أجابت فوراً وهي تحملق فيه: «الحقيقة الرابعة، هل نسيت اتفاقنا الذي ينص على أن نتخذّ القرارات معاً؟».

- اللعنة! هل ينبغي أن نتجادل حول كل شيء يا امرأة؟ كل ما

أحاول أن أقترحه هو أن نلتزم بالحكمة التي تقول حين تكون في روما إفعل كما يفعل الرومان...

- بل ما تقصده هو أن الرجال في صقلية هم الرجال، والنساء لا ينفعن سوى لأمر واحد فقط.

أراد أن يخبرها أنها تنفع لكثير من الأمور وليس لأمر واحد فقط فهي ذكية وسريعة البديهة وسليطة اللسان إلى درجة أنه بدأ يستمتع بجدلها المتكرر، وهي من دون أدنى شك تتمتع بموهبة أن تكون امرأة مليئة بالحياة والشغف من رأسها حتى أخمص قدميها...

لكنه لم يكن أحمق.

قال لها بصبر: «اسمعي، يمكننا أن نقول لها كلاماً يهدىء خاطرها ويليّن قلبها، كأن نخبرها مثلاً أننا سنحضر لوتشيا لزيارتها كل صيف».

يبدو ذلك مقبولاً: «حسناً».

- سنؤكد للسيدة أن لوتشيا ستتعلم لغتها الأم.

- اتفقنا.

- وأنك ستتعلمينها أيضاً.

نظرت برايانا إليه لتقول بحلاوة: «أليس هذا جميلاً؟ بدأت فعلاً تتبع السياسة الجديدة التي اتفقنا عليها».

- همّي الأول هو أنها قد تعلّق على مسألة أننا لسنا متزوجين.

استوت في مقعدها وحملقت فيه قائلة: «ماذا؟ متزوجان؟ لسنا صديقين حتى».

- يبدو لي أننا نستطيع أن نكون أكثر من مجرّد صديقين إذا حاولنا.

لم يكن هذا ما قصد قوله لكن هل عليها أن تستمر في رفع يدها إلى شعرها؟ كلما سوّت جلستها كانت يدها تكاد تلامس يده وتذهب بعقله. ثم ما هو العطر الذي تضعه؟ أهو الياسمين أم الورد أم

www.elromancia.com

السوسن؟

- إن كنت تقصد حين استسلمت بين ذراعيك سعياً للمواساة في لحظة ضعف، فتلك مجرّد حادثة وقد نسيتها تماماً.

قال بخشونة: «أنا واثق من أنك لم تنسيها».

- يا لك من مغرور واثق بنفسك!.

أصدرت العجلات صريراً مزعجاً فيما ركن جياني السيارة فجأة إلى جانب الطريق.

قال وهو يطفىء المحرك ويفك حزام الأمان: «ما زلت تذكرينها كما أذكرها أنا تماماً».

حدقت فيه بري بذهول تحاول منعه لكنه كان أسرع منها في فك حزام السيارة وأخذها بين ذراعيه وشرعت تقول: «ما الذي تفعله جياني؟ تباً لك! هل أنت مجنون؟ ليس لدينا الوقت لهذا...».

أجابها بابتسامة ملتوية: «بل لدينا كل الوقت».

ضمها إليه بقوة وعانقها تاركاً نفسه يضيع في عالمها ناسياً وجهه بين شلالات شعرها مستشعراً دقات قلبها وعطر أنفاسها. جاء صوته خشناً وهو يقول لها: «فات الأوان على التظاهر. كلانا ناضج ويعلم أن شعوراً ما يشدّ أحدنا إلى الآخر».

همست بصوت متكسّر: «يا إلهي، لا أعلم ما الذي يحصل لي...؟».

أجابها بضحكة خشنة: «أنا أيضاً لا أعلم ما يحصل لي إن كان هذا يريحك، جلّ ما أعرفه هو أن ثمة شيء ما...».

مدّت بري يدها في محاولة للمسه لكنها تراجعت، وهمست: «نحن نعقّد الأمور».

- وهل تظنين أن تظاهرنا بعدم وجود ذاك الشعور الغريب بيننا يساهم في حلحلة الأمور.

- إن انجرفنا في علاقة غير محسوبة النتائج فسنظل مضطرين

للتعامل مع بعضنا البعض من أجل لوتشيا.

كان يعلم أنها محقة إذ لا يمكن لحبيبين أن يعودا صديقين.

أجل كانت على حق. لكن هل للأمر فعلاً أهمية في حين أن ما يشعره به تجاهها يكاد يسبب له الألم؟

اللعنة! كانت أفكاره تقوده إلى الجنون!

عاد جياني يجلس في مقعده ويشد حزام الأمان ويدير محرّك الفيراري! وقال لها بحدّة: «ضعي حزام الأمان».

ففعلت فيما انطلق بالسيارة متمنياً لو يستطيع شدّ توماسو من ياقته وهزه بعنف.

لو يستطيع أن يقول له: انظر لما فعلت يا صاح،! كنت أعيش حياة طبيعية إلى أن...

إلى أن ماذا؟

إلى أن التقى برايانا وقلبت عالمه رأساً على عقب.

www.elromancia.com

٧ - المرآة الحديدية

تاها طويلاً قبل أن يعثرا على المنعطف الصحيح.

وفي غضون دقائق وجدا نفسيهما داخل غابة كثيفة لا تبعد أغصان الأشجار عن السيارة سوى بضع سنتمترات.

قالت بري بخفة: «طريق جميلة».

قال من بين أسنانه: «بل طريق رائعة».

- لماذا قد يرغب أحدهم بالعيش في مكان كهذا؟.

- لإبعاد الزائرين.

- كم هذا رائع. شكراً للفكرة المشجّعة سيّد فيريللي.

افتر ثغر جياني عن ابتسامة: «بكل سرور آنسة أوكونيل».

- جدياً، إن كانت هذه الطريق أو ما شئت أن تسميها مقياساً لمدى حسن ضيافة السيدة ماسيني، فهذا سبب آخر يمنع أن تحبها.

- دعينا لا نطلق أحكاماً مسبقة، اتفقنا!.

- لا يبدو ذلك مناسباً لمحام مثلك، فأنتم أسياد إطلاق الأحكام.

- هذا دليل آخر على أنك لا تعرفين الكثير عن المحامين.

نظرت برايانا إلى جياني وقالت بعذوبة مغرية: «أحد أشقائي محام وهو لا يتحفظ على إطلاق الأحكام. كان يعرف دوماً ما هو الصحّ وما هو الخطأ. أيبدو لك هذا مألوفاً؟».

- الوضع هنا مختلف.

لم يصدّق ما قاله لكنه تصوّر أن ما من ضير في التعامل معها بانفتاح فقال: «لعل محامي توماسو فهم الأمور بشكل خاطىء، ربما

لديه دوافع شخصية تجعله يكره العجوز، ربما...».

- لربما هذا هو المنزل.

مدّ جياني رأسه من النافذة ليرى بشكل أفضل وقال بهدوء: «اللعنة».

كان المنزل الذي تشكل السماء خلفيّته لا يزال بعيداً. ومع ذلك، أدركت بري أنه ضخم.

- قلت لي إنه ليس قصراً.

- وكنت مخطئاً. يبدو أشبه بقصر تمّ نقله من ترانسيلفانيا.

- هل تود تغيير رأيك حيال استقبال السيدة لنا.

كانت نبرة بري عادية لكنها لم تقنع جياني، فوضع يده فوق يدها يحضنها. وسألها برقة: «هل أنت خائفة؟».

ترددت قبل أن تجيب، «خائفة لا، مرتعبة».

رفع يدها إلى شفتيه وقال: «لا تخافي. تذكري أن القانون إلى جانبنا».

- هل تتوقع من شخص يعيش في مثل هذا المكان أن يقلق بشأن القانون؟.

ضحك جياني وقال: «السيدة ماسيني ليست زوجة دراكولا».

- قد لا تكون كذلك، لكن إن رأيت خفافيش تحوم فوق الباب الرئيسي فسأصرخ.

- كارا! السيدة كائن بشري.

استدارت بري نحوه وقالت: «صحيح، لكن الأمر أشبه بلكمة مزدوجة. اللقاء بالسيدة ولوتشيا. أظن أن هذا ما يقلقني فعلاً. اللقاء بـ... بـ... ماذا يسمون الطفل الذي تصبح وصياً عليه؟».

- يسمونه مسؤولية ضخمة، ولأكون صادقاً، أشعر بالقلق مما ينتظرنا مثلك تماماً.

- لا يسعني أن أتخيل أنك تخشى شيئاً.

www.elromancia.com

- لا أخشى السيدة، فمهما كانت المشاكل التي ستسببها لنا هذا إذا افترضنا أنها ستفعل أصلاً، سنتمكن من معالجتها. لكن الطفلة... الطفلة أمر آخر تماماً. ما أخبرتك به قبلاً صحيح. لا أعرف شيئاً عن الأطفال.

- ستسير الأمور على خير ما يرام إن لم ندعها تدرك خوفنا.

- من؟ جدّة توماسو؟.

ابتسمت بري وردّت: «بل الطفلة. تقول زوجة أخي كير إنها كانت مرتعبة عندما غسلت ابنتها للمرّة الأولى لكن كل شيء سار جيداً لأن الطفلة لم تدرك خوف أمها».

- تبدو تلك نصيحة جيدة للتعاطي مع لوتشيا كما مع السيدة.

- أنت ذكي جداً حين تريد ذلك فيريللي.

أجاب جياني بحزم: «سنسجّل هذا اليوم في التاريخ. برايانا أوكونيل تمنح جياني فيريللي إطراءً».

- لا تغترّ بنفسك كثيراً.

تنهد وترك يدها ليغيّر سرعة السيارة فيما خرجا إلى فسحة ليس فيها أشجار: «لن أفعل، لا سيما أنه قد يكون الإطراء الأخير الذي أسمعه منك كارا، نظراً لجهلي المطبق بما ينتظرنا».

قالت بري محاولة أن تضفي على كلامها مسحة من الخفة: «لِمَ ينذر كلامك بالشؤم؟».

أوقف السيارة وقال: «لقد تسنّى لجدّة توماسو أن تفكر في الأمر».

- وهل هذا جيد أم سيء؟.

هزّ جياني كتفيه وقال: «لست أدري. أفترض أنها قد ترحب بنا بحفاوة. هذا احتمال ضئيل لكنه ممكن».

- كإمكانية سقوط الثلوج في شهر آب.

- إن كان الأمر كذلك، فقد نبقى لبضع ساعات. سننام قليلاً

ونمنحها فرصة لتوديع حفيدتها ثم نتوجه إلى المطار.

- وإذا إن لم تسرّ لرؤيتنا؟ ماذا نفعل عندئذ؟.

أطلق تنهيدة طويلة وأجاب: «لست واثقاً لكن تأجيل ما هو حتمي قد يكون خطأً».

- ما يعني أننا سنأخذها ونرحل مباشرة.

- لا نريد أن يبدو الأمر وكأننا نخطف الطفلة.

- لن نكون كذلك، فالوصية....

- نحن في صقلية ولسنا في الولايات المتحدة. أخبرتك أن العادات و...

قالت بري بنفاد صبر: «مختلفة، لقد سمعتك، لكن القانون هو القانون».

ردّ جياني بجفاء: «إنه أمر مذهل. ها أنا الواقعي أحاول أن أجعلك تفهمين أنت المثالية أن القانون ليس هو الأهم دوماً».

- أهذا ما تظنه بي، مثالية؟.

رفع يدها إلى فمه وتلاقت نظراتهما: «أظنك حالمة كارا، لقد أمضيت حياتك تبحثين عن شيء لم تجديه بعد. هل أنا محق؟».

حدقت بري فيه. ما الذي يتحدثان عنه؟ ليس جدة توماسو، ولا الطفلة. هل كان جياني يفكر في ما حدث منذ برهة؟ هل رأى إلى هذا الحدّ عالمها الداخلي؟ هل كان يعلم أن ما من شيء في عالمها حضّرها لما تشعر به وهي بين ذراعيه؟

غمر السيارة ضوء غريب أعمى بصرهما فصرخت بري فيما قال جياني شيئاً ما لم تفهمه باللغة الإيطالية وفتح باب السيارة وخرج مسرعاً. سمعت ما يشبه صوت الاشتباك.

وانطفأ الضوء.

عندما تكيّفت عيناها مع ضوء الفجر الرمادي، رأت جياني يتصارع مع وحش طوله عشرة أقدام على الأقل فخرجت من السيارة مسرعة

www.elromancia.com

والتقطت حجراً ورفعته بقدر ما تستطيع.

رمت الحجر بكل ما أوتيت من قوة وصرخت: «توقف».

وسقط الوحش أرضاً عند قدميها.

بالكاد نظرت بري إليه بل سارعت للارتماء في أحضان جياني تسأله: «جياني؟ جياني؟ هل أنت بخير؟».

- أنا بخير.

مررت يدها على خده بسرعة تتحقق من عدم وجود كدمات أو ندوب وقالت: «دعني أرى، يا إلهي، لقد خفت كثيراً، ظننت أنك ... ظننت أنه...».

أمسك جياني بيديها وطبع قبلة سريعة عليهما قائلاً: «أنا بخير كارا».

ركع على الأرض بجانب الرجل الممدد والتقط المصباح الذي أوقعه وأضاءه: «دعينا نرى إن كان صديقنا بخير كذلك».

- كان يحاول إيذاءك.

- كلا بل كان يتحدث إليّ.

- لكني، لكني رأيت يديه تلوحان بكافة الاتجاهات.

قال جياني بخشونة: «نحن نتحدّث بأيدينا بقدر ما نتحدّث بألسنتنا».

وحوّل اهتمامه إلى الرجل المرتمي أرضاً ليسأله بالإيطالية: «هل أنت بخير؟».

حدّقت بري في الوحش الذي ما عاد يبدو ضخماً. وصعقتها حقيقة ما حدث وما فعلت، فسألت بنبرة مرتجفة: «هل هو... هل قمتُ...».

تأوه الرجل الممدد أرضاً وهو يتحسّس رأسه ثم قال: «سيدي؟».

أومأ جياني: «أجل، من أنت؟».

زمجر مجدداً ولامست أصابعه رأسه: «أنا رئيس الخدم في قصر

السيدة ماسيني».

- ما الذي يقوله؟ من هو؟.

تجاهلها وأكمل حديثه مع الرجل الآخر فأدركت أنه يطرح عليه المزيد من الأسئلة. وأخيراً، أومأ جياني ونظر إلى بري.

- أمسكي بذراعه الأخرى وساعديني لنوقفه على قدميه.

جلست بري القرفصاء بجانب الرجل ووضعت يدها تحت مرفقه فقال بصوت مرتجف ولكنة إيطالية: «شكراً».

سأله جياني: «هل تتكلم الإنكليزية؟».

- أجل سيدي، قليلاً.

- سأصحبك بسيارتي الى المنزل اتفقنا.

وضع الرجل يده على رأسه مجدداً وقال: «شكراً لك. ما الذي ضربني؟».

فتحت بري فمها لتخبره لكن جياني هز رأسه وهو يضعه في السيارة بحذر، ثم قال: «لست واثقاً. لعله غصن شجرة. فهذه المنطقة تحتاج لعناية أكبر».

- ما الذي يجري جياني؟.

تنهد ونظر إلى لون السماء العاجي وأخذ يفكر كم كانت حياته بسيطة وسهلة حتى نهار الأمس.

- لقد رأوا أضواء السيارة من المنزل. وحين انطفأت الأضواء ظنت السيدة إنه إما أحدهم يقتحم منزلها وإما أننا من الصحافة ونحاول أن نتسلل.

- من الصحافة؟ ولكن لِمَ عسى الصحافة....

- لا أعلم، أفترض أن الحادث أثار حشرية الصحف المحلية. يبدو أن السيدة شخصية مرموقة أو شيء من هذا القبيل.

- ومن هو هذا الرجل؟.

- إنه رئيس الخدم وقد ضربته على رأسه».

www.elromancia.com

ضربت بري كفها على صدرها مذهولة: «يا إلهي!».

قال جياني بخشونة: «بالفعل».

- لكني ظننت، ظننت أنه يحاول أذيتك.

كانت عيناها متسعتين وشعرها مشعثاً وراحت ترتجف فشعر جياني بصعوبة في ابتلاع ريقه. أراد أن يخبر برايانا أمراً لم يكن واثقاً مما هو فهمس اسمها بدلاً من ذلك وضمها بين ذراعيه ثم قال بصوت أجش: «شكراً لك».

أطلقت ضحكة مرتجفة: «علامَ؟ لأني ظننت نفسي أقتل وحشاً فتبيّن أني ضربت رئيس خدم السيدة. يا لها من طريقة رائعة لبدء الزيارة، ألا تعتقد ذلك؟».

ابتسم وطبع قبلة على شعرها وأبعدها عنه قليلاً ليقول: «أظنها طريقة مؤثرة، لن تعرف بالأمر مطلقاً».

- أتظن ذلك؟.

أجاب بحزم: «لن تفعل، فغصن شجرة هو ما تسبب بالأذى».

تنهدت بري وقالت: «اتفقنا».

- لكنك راعية جيدة كارا.

ضحكت وقالت: «كبرت مع ثلاثة إخوة. وكنا نلعب كرة المضرب كثيراً».

ابتسم لها ورفع خصلة عن عينيها قائلاً:

- ماذا عن قيادة السيارات السريعة؟ هل أعطاك أحد إخوتك دروساً في ذلك؟.

قالت بثقة: «بالطبع، شين فعل».

- ذكريني أن أشكرهم حين ألتقيهم.

فقالت وهي تبتسم: «هل ستفعل؟ أعني هل ستلتقي إخوتي؟».

توتّرت إحدى عضلات وجه جياني وهو يقول برقة: «بالطبع سأفعل. عليّ أن أخبرهم بمدى شجاعة شقيقتهم».

- ومدى غبائها. لا يسعني أن أصدق أني هاجمت رئيس الخدم.

- كان يستحق ذلك فأنا هاجمته أيضاً.

وضحك ثم رفع ذقن بري ونظر في وجهها: «كلا، لم أفعل. كنت شجاعة كارا. والآن سأطلب منك أن تكوني شجاعة مجدداً».

- كيف ذلك؟.

- بأن تقابلي جدّة توماسو وحدك.

طرفت بري بعينيها وسألت: «ماذا؟».

- لن تتسع لنا السيارة نحن الثلاثة ولن أدعك تمشين كل تلك المسافة وحدك.

- لا تكن سخيفاً، ماذا يمكن أن يؤذيني؟.

أجابها من دون أن يلوح على وجهه طيف ابتسامة: «دببة بريّة. كلاب إذ يمكن مصادفة الإثنين في هذه الجبال. ستقودين يا برايانا وأنا سأمشي».

- ولكن... ولكن....

انزلقت يدا جياني إلى كتفيها وقال لها: «لا تفتحي أيّ مواضيع مع السيدة حتى أصل. سوف ألحق بك بعد بضع دقائق فقط. التزمي بالقواعد الأساسية، عرّفي عن نفسك وقولي لها إني سأوافيك في الحال».

- وسأقول لها إني ضربت رئيس خدمها بحجر وإني أتيت لأخذ حفيدتها.

قال بنبرة معتدلة: «بل رئيس خدمها اصطدم بغصن شجرة وأنت أتيت لتنفيذ الرغبة الأخيرة لصديقينا. لكن لا داعي لأن تقولي لها هذا كله. كل ما عليك فعله هو التصرف بلباقة إلى أن أصل».

- تعني أنك تريدني أن ألعب دور الأنثى الصقلية، فأستمع وأومىء برأسي وأبتسم.

- لن تتمكني من لعب دور المرأة الصقلية بإتقان حتى لو كانت

www.elromancia.com

حياتك على المحك.

تنهدت بري واستدارت تنظر إلى القصر من فوق كتفها. كان المنزل الذي يقبع فوق التلة رمادياً باهتاً بارداً وحيداً فقالت: «أعلم ذلك. ما لا أفهمه فقط... حسناً، أعلم لما لم يشأ توماسو أن تكبر ابنته هنا».

قال جياني بتوجم: «مع ذلك، ينبغي علينا لقاء السيدة».

أطلقت ضحكة متوترة: «قلت إنه لن يكون قصراً وهو كذلك. هل سبق وقلت لك إني قلقة بشأن الخفافيش؟ حسناً سيكون مصاصو الدماء التحدي الأكبر».

حضن جياني وجهها بكلتي يديه وهمس في أذنها: «اذهبي، وتذكري! إن ساءت الأمور كل ما عليك فعله هو إخراج السيدة وتعريضها لشمس الظهيرة».

ابتسمت بري كما تمنّى أن يفعل، وقالت بمرح: «أراك بعد خمس دقائق».

وصعدت في الفيراري ثم أدارت المحرّك بقوة جعلت وجه جياني يشحب. وانطلقت مسرعة في حين جرجر جياني قدميه وراء السيارة.

لم يكن يجديه نفعاً التفكير بما ستظنه السيدة حين ترى رئيس خدمها مصاباً. كان واثقاً من أنها لن تصدق قصة جذع الشجرة، لكن هل سيخطر لها أن بري هي من قامت بضرب الرجل؟.

التوت شفتاه في ابتسامة ماكرة.

يا لها من امرأة! قوية وفي الوقت ذاته رقيقة وناعمة. أجل تلك كانت برايانته... طرف جياني بعينيها.

برايانته؟ أي نوع من التفكير ذلك؟ إنها تعجبه. كانت تعجبه كثيراً رغم أنه كان يعتبرها مجرّد لعنة في اليوم السابق فقط. لكنها لم تكن له، ولن يفكر في أي امرأة على الأرض على أنها امرأته قبل سنوات وسنوات.

إنه مجرد افتتان، افتتان وإعجاب. أزعجت الفكرة جياني وهو يسير متوجّهاً نحو القصر. ماذا لو كانت مشاعره تجاهها مختلفة؟.

حسناً، حان الوقت للتراجع خطوة إلى الوراء، للعودة إلى أحضان المنطق. حان الوقت الأخذ الطفلة والعودة إلى أميركا والحصول على منزل لها ولبرايانا بجانب شقته وإحضار مربيّة وتنظيم بقية الأمور لتسير بسلاسة قبل أن يعود إلى حياته الخاصة...

- ... لن يشعر على هذا النحو! أنت غير معقولة....

حمل النسيم بقية الكلمات لكن هذا ليس مهماً. وعلم جياني أنه صوت بري.

وتوقف عن السير.

تمتم يقول في نفسه: «كلا، لا، أرجوك لا».

لم يكن المنزل يبعد سوى بضعة أمتار.

ورأى امرأتين وسط الباحة، إحداهما عجوز طويلة القامة تستند إلى عكاز فضي اللون والأخرى هي برايانا. أدرك من طريقة تحريك يديها وشعرها المتطاير حول وجهها أنها نسيت كل ما قاله لها.

www.elromancia.com

٨ ـ لست مرحباً بك!

أخذ جياني نفساً عميقاً وأجبر شفتيه على الابتسام قبل التوجه نحوهما. قال بحماسة: «برايانا، لقد وصلت بسرعة قياسية».

استدارت نحوه وحملقت فيه فقابل نظراتها بأخرى تحذيرية وابتسم مجدداً وهو يمدّ يده نحو السيدة التي تجاهلت يده عمداً. حيّاها بجمل إيطالية طويلة.

سألته برايانا: «ما الذي تخبرها به؟».

لم يكن الأمر سهلاً لكن جياني حافظ على ابتسامته وأمرها من بين أسنانه: «اهدأي».

- طرحت عليك سؤالاً. ما الذي قلته لها للتو؟.

أطلق جياني ابتسامة أخرى باتجاه السيدة المتصلبة وهو يقول لها بالإيطالية مجدداً: «هلاّ تعذرينني للحظة سيدتي؟».

اختفت ابتسامته وهو يمسك ببري من ذراعها ويبتعد بها بضع خطوات ويقول لها: «أقول لها مرحباً بحق السماء. كيف حالك، أعذريني لأني تأخرت قليلاً».

ردّت بري بعنف: «قلت لها أن تعذرك لأنك تأخرت قليلاً. هل نسيت بشأن اتخاذنا القرارات معاً؟».

- هدئي من روعك بري. لا أعرف ما الذي يجري هنا...

كان صوت السيدة جليدياً بما يكفي وهي تقول مقاطعة حديثهما: «ما يجري هنا هو أن رفيقتك اختارت ألا تفهم ما أخبرتها به».

قالت بري بغضب: «هذا يعني أنك تتحدثين الانكليزية؟».

ثم استدارت بقوة نحو جياني وأضافت: «ادّعت أنها لا تعرف الانكليزية وأنها تعرف جملة واحدة فقط، لم تتوقف عن تكرارها كالببغاء، لست مرحّباً بك هنا...»

- كانت هذه الجملة كافية لكن رفيقتك ترفض تصديقها لسوء الحظ.

شعرت بري بابتسامة جياني تخبو. لم يتوقّع ترحيباً حاراً لكنه لم يتصوّر قط أن يتم طرده عن الباب، كما أنها تشدد كثيراً على كلمة «رفيقتك».

- لقد قطعنا مسافة طويلة سيدتي، وهذا حتماً لا يدل على حسن الضيافة الصقلية.

- لست صقليّة سيد فيريللي كما تلاحظ من لكنتي فأنا رومانية وقد جئت إلى هذه الأرض الموحشة عندما تزوجت من زوجي الراحل.

زمجرت بري: «ليست صقليّةرغم أنها عاشت هنا لما يقارب المئة عام».

قال جياني بحزم: «دعيني أعالج الأمر بنفسي بري».

- آسفة لأنكما قطعتما هذه المسافة الطويلة كلها من أجل لا شيء أيها السيد.

- هل تسمّين مجيئنا من أجل طفلة تومي وكارين لا شيء؟.

- اللعنة بري، هلا حافظت على هدوئك؟.

- إن لم تعلّم هذه السيدة الوقوف عند حدّها فسأفعل أنا ذلك!

كان هذا كافياً فتوقف جياني عن الابتسام وتخلّى عن أي محاولة ليكون لبقاً وقال: «هذه برايانا أوكونيل. كانت أعزّ صديقة لكارين، وهي الآن كما تعلمين الوصية على لوتشيا».

- لقد تمّ منحها هذه الصفة مثلك أنت.

- صحيح. وإن لم ترغبي في مواجهتنا في المحكمة فأقترح أن تتنحي جانباً وتدعينا ندخل.

ابتسمت السيدة وقالت: «تهديد فارغ، فأنت هنا في صقلية حيث الأمور تجري ببطء».

تراجعت خطوة إلى الوراء: «إن قدّر لنا التواجه في المحكمة، فلن يحصل ذلك قبل سنوات. والآن هلا عذرتماني، لدي أعمال أقوم بها».

قال جياني: «المحامي توماسو أصدقاء نافذون».

لم تكن تلك كذبة بالمعنى الكامل للكلمة. وتابع يقول: «أنا أيضاً لدي أصدقاء في الإعلام والصحافة».

ما قاله عن نفسه كان صحيحاً تماماً فهو مدعي عام فدرالي. وقد عالج الكثير من القضايا، وإن اضطر للتحدث إلى الصحافة فهذا ما سيفعله.

- كنت أتساءل عما سيقوله سكّان هذه الجزيرة الموحشة كما تسمينها عن امرأة ثرية تظن نفسها فوق القانون.

قالت بري: «أجل، ثرية. أنظر إلى هذا القصر الكبير الذي تظن أنها ستربي فيه ابنتنا».

ابنتنا! هذه الكلمة جعلت قلب جياني يتوقف عن الخفقان. نظر إلى الشرارات في عيني بري فأمسك بيدها وشبك أصابعهما قائلاً: «الخيار خيارك سيدتي، إما أن تجري الأمور بسلاسة أو ننشرها في العلن».

سادت لحظات من الصمت ثم ضربت السيدة بعصاها على الأرض فظهر رئيس الخدم ووقف وراء سيدته.

- بارتوليمو. أحضر أمتعتهما، وضعها في غرفة النوم الزرقاء.

قال لها جياني بلباقة: «شكراً لك».

أتت ابتسامة السيدة ماكرة وهي تقول: «علامَ تشكرني؟ هل لأني وافقت على التحدث إليكما أو لأني وضعتكما في غرفة واحدة؟ أخلاقكما مسألة لا تعنيني سيد فيريللي طالما أنها لا تمسّ بحفيدتي.

أعدك أني لن أدع ذلك يؤثر عليها بأي حال».

فكر جياني بما عليهما مواجهته وهما يلحقان بها إلى الداخل وباجتماعه هو وبرايانا في غرفة واحدة.

كانت الغرفة الزرقاء شاسعة مع قطع أثاث ضخمة، فكرهتها لحظة رأتها.

قالت ما أن خرج رئيس الخدم: «المنزل بأسره أشبه بمقبرة».

ردّ جياني وهو يرمي بسترته على الكرسي القريب: «إنه أقرب إلى المتحف لكني لن أجادلك».

- وتلك المرأة. من تظن نفسها؟.

ضحك جياني لكلامها وقال: «إنها تعلم تماماً من تكون. إنها السيدة إيمّا أوليفيا غراسيا ماسيني».

- أنت تعلم ماذا أقصد.

قال وهو يرمي بربطة عنقه فوق سترته: «أعلم ماذا تقصدين تماماً. المشكلة أنها قد تكون على حق. إنها امرأة تملك السلطة».

قالت له بري: «هل تعني أنها قد تربح وتحتفظ بالطفلة على الرغم مما تنص عليه الوصية؟».

- يمكنها تأخير الأمور إلى ما لا نهاية إن اختارت ذلك.

- لكنك واجهتها وهددتها، وجعلتنا ندخل المنزل بدلاً من أن تطردنا عن الباب.

جلس جياني على حافة السرير. ساعات السفر الطويلة، أحداث حياته المتلاحقة ألقت بظلالها عليه فجأة. وقال: «هددتها بنشر الموضوع وهذا آخر ما تريده العائلة الأرستقراطية».

اتسعت عينا بري وهي تقول: «السيدة ماسيني هي...».

- بل زوجها. أدركت أنني سمعت بالاسم من قبل لكن حين رأيت المنزل، وحين قالت إنها من روما... خطر لي أن نشر الموضوع في الإعلام سيكون ورقتنا الرابحة».

www.elromancia.com

- ظننت أن القانون هو ورقتنا الرابحة.

- إنها محقة بشأن المدّة التي قد يستغرقها عرض القضية أمام المحاكم.

رمى الوسادات خلفه وتثاءب واستند إليها.

- ماذا عن أصدقاء محامي تومي النافذين؟

تنهد جياني وأجاب: «من يعلم؟ في هذه المرحلة لست واثقاً سوى من أمرين اثنين. السيدة تريد تجنب نشر الموضوع في الإعلام، ولا ترغب في أن تكبر حفيدتها مع ثنائي أميركي فاسد الأخلاق».

كاد يرى بري تجفل ويقشعر بدنها وهي تقول: «تحدّث عن نفسك فيريللي. أنا لست منحلّة أخلاقياً».

- أنت لست متزوجة.

- ولا أنت.

- سنكون وصيين على لوتشيا، لكننا ذكر وأنثى.

- يا لها من ملاحظة لامعة!

تلاقت نظراتهما والتوت شفتيه عن ابتسامة مثيرة ماكرة: «ونحن لسنا متزوجين. فمن يعلم إلى أين يمكن أن يؤدي ذلك؟».

شعرت بري بموجة الحرارة تجتاح وجنتيها لكنها ثبتت نظراتها على وجهه وقالت: «لن يؤدي إلى أي مكان. سبق وقلت لك إن الأمور معقّدة أصلاً من دون أن تحاول...».

- أعلم وأوافقك الرأي. سأجد الحلّ، لكنني أحتاج لقليل من النوم أولاً.

بدا أنها تلاحظ السرير الكبير للمرّة الأولى فقالت بغضب: «لماذا وضعتنا هنا؟ حين قالت الجناح الأزرق، ظننتها تقصد غرفتين منفصلتين».

- إنها طريقتها لإخبارنا أنها تعرف أننا حبيبان.

- لكننا لسنا كذلك.

- يا لذاكرتك الضعيفة كارا.

وضعت يديها عل ردفيها بعصبية وقالت بحزم: «نحن لسنا حبيبين، سأنزل السلالم وأبحث عن السيدة وأقول لها...».

تثاءب جياني: «ليس الآن. علينا أن ننام قليلاً وإلا ستستغل السيدة الوضع وتشك بأمرنا».

كان محقاً. كانت بري تشعر بالإرهاق يتسلل إلى عظامها فقالت: «حسناً، سآخذ قيلولة على الكرسي».

ربّت على السرير وقال: «لا تكوني سخيفة، نامي هنا».

- في السرير نفسه معك. مستحيل.

- السرير واسع بقدر ملعب كرة قدم. ستنامين في جهة وأنا في الأخرى. لن تشعري حتى بأننا نتشارك سريراً واحداً.

- كلا.

وقفز عن السرير قبل أن تتمكن من إظهار أي ردّ فعل فحاولت أن تتملّص منه حين رفعها بين ذراعيه ووضعها على السرير وهو يقول بحزم: «أغمضي عينيك ونامي».

ثم عاد وأمسك بها حين حاولت النهوض مضيفاً: «ستبقين هنا أوكونيل».

- لا أشعر بالتعب.

تمدّد جياني على السرير بجانبها وقال: «بل أنت منهكة. أغمضي عينيك ونامي. لا أريدك أن تذهبي إلى السيدة مجدداً من دوني».

- لا آخذ الأوامر منك. لِمَ تنسى هذا دوماً؟

- أنا صقلّي وأعرف العادات هنا.

- وأنا امرأة ذكية وأستطيع تصوّر تلك العادات.

قال بسخرية: «أجل أعرف ذلك لا سيما بعد أن رأيت كيف عالجت الأمور مع السيدة».

حملقت بري في السقف وقالت: «إنها شخص كريه».

- إنها الشخص الذي علينا التعامل معه.
- أريد رؤية الطفلة.
- وأنا أيضاً.

كانت هذه كذبة، فلِمَ عساه يرغب في رؤية طفلة في حين يشعر بالرعب من لمسها؟ وأضاف: «لكننا نحتاج لبعض النوم أولاً».

- أريد رؤيتها الآن.

بدأت بري تتحرك فلف جياني ذراعه حول خصرها وشدّها إليه مجدداً وقائلاً: «تعالي إلى هنا».

- دعني أذهب.
- اللعنة، لا تعانديني حتى في هذا!.

سادت لحظة صمت ثم قالت: «ستتجعد ملابسي».

كاد ينفجر ضاحكاً على الرغم من إحساسه الشديد بالتعب وقال: «الملجأ الأخير لامرأة يائسة. ضعي رأسك على الوسادة ونامي».

- يمكنك أن تجبرني على التمدد بقربك لكنك لا تستطيع إجباري على النوم.

قال منهكاً: «صحيح، لا يمكنني ذلك. لكن تذكري أن نومي خفيف وسأعرف متى تتحركين بمجرّد أن تقومي بأي حركة».

همست: «سافل».

ولم يجبها جياني سوى بشخير.

تمددت بري بقربه تشعر بثقل ذراعه المحيطة بها. كانا ملتصقين ببعضهما البعض، فصرّت أسنانها بغضب.

كل الوعود التي أطلقها عن اتخاذهما القرارات معاً طارت بمجرد أن تواجه مع السيدة.

قال إن كافة النساء اللواتي عرفهن يرغبن في أن يهتم الرجل بهن وهي تعترف بأنها تفهم لما تحب النساء أن يهتم بهن. فوجودها قربه والإحساس بجسمه الدافىء الصلب وأنفاسه الناعمة في شعرها

جعلاها تفكر في أنها لن تفضل أن تكون في مكان آخر أبداً. ومع ذلك لن تنام. لكن ما أن لامست رموشها وجنتيها حتى أغمضت عينيها واستسلمت للنوم وهي تشعر بالدفء والأمان...

فتح جياني عينيه متسائلاً إن كان قد نام حتى فترة بعد الظهر؟ هل نام كل تلك الفترة فعلاً؟ تثاءب وتمطى... وشعر بدفء غريب من جسم ملتصق به.

إنها بري! كانت رائحتها عطرة، وبدت ناعمة وشابة وواثقة وأكثر جمالاً من أي امرأة عرفها. وشعر جياني بدقات قلبه تتسارع.

إنها فعلاً أكثر من جميلة. ابتسم وهو يفكر في أنها لن توافقه الرأي فشعرها كان ما تسميه النساء مشعثاً. لكنه اعتبر الخصلات التي بعثرها النوم مثيرة.

واشتدت ذراعي جياني حولها.

كانت امرأة قوية برايانا تلك، أو على الأقل هذا ما أرادت للعالم أن يظنه بها. كانت تتصف برقة لا متناهية ونعومة جعلتاها تبدو ضعيفة. كانت تحتاج لحماية أحدهم لتشعر بالأمان والسلام مع العالم من حولها، بحاجة لمن يحضنها ويطمئنها.

رمشت بري، وتنهدت مجدداً وتمطّت كقطة صغيرة.

كانت ستغضب حين تصحو تماماً وتدرك أنها غفت بين ذراعيه لكنها همهمت وعادت إلى النوم باطمئنان. بدا وكأنها لفظت اسمه وتمنى أن يكون محقاً فقرّبها منه أكثر.

كان يعرف أن الاستلقاء والنوم في هذا الوقت خطأ، إذ حان وقت النهوض والاستحمام والعثور على المطبخ في هذا القصر الحجري لتحضير فنجان قهوة. كان عليه أن يفكر في الخطوة التالية لاستعادة الطفلة من السيدة من دون الغرق في الوحول القانونية. كان يعلم أن قضايا كهذه في بلاده قد تستمر إلى الأبد.

إن تهديدها باللجوء إلى الإعلام لا يسهم سوى بتأخير الأمور.

www.elromancia.com

كان واثقاً من أن السيدة قادرة على إيجاد طريقة ما للالتفاف على الموضوع، وتهديدها المتعلق بأخلاقهما مشكلة.

إن لم تتغير الأمور في هذه التلال الصغيرة، فإن فكرة تربية ثنائي غير متزوج لطفلة من أصل صقلي كان يعتبر جرماً. إن أجادت السيدة اللعب فستخرج من هذه القضية بمظهر القديس الذي يهدف للحفاظ على الأخلاق.

أطلق جياني تنهيدة من الأعماق. لم تكن الأمور واضحة بعد، وكان لا يزال منهكاً جداً للتفكير بالأمور بشكل صحيح.

عاد يحضن بري بحنان ويغط في النوم مجدداً.

لم يكن الشعور بدفء جسم بري بقربه ما أوقظه هذه المرّة بل الضوء الساطع الموجّه نحوه.

فتح عينيه وأطلق شتيمة بصوت منخفض وعاد يغمضهما: «اللعنة! اطفأي ذاك الشيء».

- انهض فيريللي.

فتح عينيه مجدداً بحذر. كانت برايانا تقف عند حافة السرير بعد أن استحمّت، وغيّرت ملابسها. كما أنّ مزاجها تغيّر، وقد أدرك ذلك بمجرد النظر إلى وجهها غير المبتسم.

وضع قدميه على الأرض ومرّر يديه في شعره سائلاً: «ما الأمر؟».

- لا شيء، لا شيء أبداً سوى أننا أضعنا النهار بأكمله بسببك.

- بري... انتظري لحظة.

- وقمنا بما أرادته السيدة تماماً بفضلك أنت أيضاً.

رفع جياني رأسه وسأل: «ما الذي تقصدينه؟».

- وضعتنا في هذه الغرفة معاً بهدف معين. هذا ما قلته أنت بنفسك.

هل قال ذلك فعلاً؟ كان تفكيره مشوشاً. متى كانت آخر مرّة تناولا فيها الطعام؟

قال بحذر، «اسمعي كارا، لست أفهم ما الذي تقولين. ما قصدك؟».

- أقصد أنها ستثبت تهمة أننا حبيبان علينا.

- ألسنا كذلك؟ ثم ما علاقة ذلك بوضعنا؟.

- كلا لسنا كذلك! بل نحن شخصان غارقان في وضع معقّد جعلناه أكثر تعقيداً.

وقف على قدميه وتقدّم منها: «اسمعي برايانا. لمجرّد أننا نمنا في السرير ذاته لا يعني...».

- لا أريد التحدث بالأمر الآن. أريد رؤية لوتشيا.

- سنفعل، لكن موقفك هذا....

- لا أتخذ أي موقف فيريللي.

قال مجاهداً للحفاظ على هدوئه: «بري ... كارا...».

قالت وهي تبعد يديه عنها: «هلا تكفّ عن مناداتي هكذا؟ حضّر نفسك لتتمكن من مقابلة السيدة».

ضاقت عينا جياني وهو يعترف: «لا أعلم ما الذي يدور في رأسك برايانا، لكنه لا يعجبني».

- حقاً! هذا يمزق قلبي.

- النقاش لم ينته بعد.

- سأمنحك عشر دقائق تماماً قبل أن أذهب لمقابلة السيدة وحدي.

أجابها بهدوء: «افعلي ذلك وأعدك أنك ستندمين».

رفعت برايانا ذقنها: «أنت محق. مارس دورك الرجولي، فحين تكون في صقلية...».

- حاذري مما تقولين.

- لماذا؟ هل ستضربني إن لم أفعل.

لاح طيف ابتسامة على ثغره وقال وهو يشدّها نحوه: «بل أعرف

طريقة أفضل لجعلك تلينين».

أرادت أن تبادله العناق و أن تلف ذراعيها حول عنقه وتشعر بجسمه الدافىء القوي إلا أن ذلك سيكون اعترافاً تاماً بالاستسلام له، وهذا ما يتوقعه رجل مثله منها.

ضربته على ذراعيه ودفعته بعيداً عنها وهي تقول: «كفّ عن ذلك! هل أنت مجنون؟ قلت لك ألا تلجأ إلى هذه الأساليب معي؟».

نظر في عينيها يسألها: «حقاً؟».

ثم أدار ظهره ومشى نحو الحمام وأغلق الباب وراءه.

لم يكن ما حصل بينهما ذنبه هو وحده. لا بد أن تعترف بذلك لنفسها على الأقل إن لم يكن له. لكنه لن يحصل مجدداً. عندما استيقظت بين ذراعيه وهي تشعر بالسكون والاطمئنان، أصابها الذعر.

طأطأت رأسها بصمت.

لم تكن مستعدة لأي من هذا. ويجب أن يتفهم جياني الأمر. يستحيل أن ينجحا في إتمام مهمة الوصاية على لوتشيا قبل أن يحلا أمورهما. هما ليسا حبيبين، ولن يكونا. لن تسمح لنفسها بالإذعان لمشاعرها بالخضوع لـ...

ودقّ أحدهم الباب.

ابتعدت بري عن الحائط ومرّرت يدها في شعرها وسألت: «من؟».

سمعت صوت امرأة من خلف الباب تهذر كلاماً باللغة الإيطالية. ولم تفهم بري منها سوى كلمة «طفلة» فأخذت بري نفساً عميقاً وفتحت الباب لترى امرأة تحمل بين ذراعيها كتلة صغيرة بيضاء ستغير حياتها إلى لأبد.

٩ - تفاوض وشروط

كانت الطفلة غاية في الروعة، جميلة وناعمة. فشعرت بري بموجة من المشاعر الدافئة تكتسح قلبها.

لحقت بالمربية، ومع وصولها إلى غرفة الجلوس كان كل خوف من حمل لوتشيا قد اختفى.

كانت الطفلة تستريح بين ذراعيها وكأنهما مكانها الطبيعي وهي تنظر إلى وجه بري بشكل خطف قلبها على الفور.

كان وقع المسؤولية لا يزال هائلاً لكن حدسها أنبأها بأنها أكثر من مستعدة للاضطلاع بدورها الجديد. أما التغيّرات التي ستحدثها هذه المسؤولية في حياتها فلم تكن مهمة. ستفعل كل ما يتطلبه تربية هذه الطفلة وبسعادة. لم يكن أي من الخيارات التي اتخذتها في حياتها يبدو صحيحاً كهذا الخيار.

وقالت للطفلة: «ستجري الأمور على خير. لا أعرف الكثير عن عالم الأطفال، لكنهم لا يعرفون أيضاً الكثير عن عالم الكبار، ستتعلّم معاً».

كانت لوتشيا تنظر إليها بوقار بعينيها البنيتين بلون الشوكولا. لم تطرف مطلقاً، بل ابتسمت ومدّت يدها تضرب ذقن بري. ضحكت بري وأمسكت باليد الصغيرة تقبل كل إصبع على حدة.

ثم نظرت إلى المربية تقول: «إنها رائعة وجميلة جداً».

لعلها تلعثمت قليلاً وهي تعبر عن رأيها لكن هذا غير مهم. كما أنّ الممرضة كانت تراقب التعارف بين الطفلة وبري كصقر مستعدّ

للانقضاض على فريسته وقالت بالإيطالية: «أنت محقة آنستي، إنها طفلة رائعة».

- غيما محقة، فلوتشيا طفلة مذهلة.

استدارت بري لترى السيدة ماسيني تقف بالباب مقطبة مصففة الشعر أنيقة المظهر.

وراحت السيدة ترمقها بنظرات تقويمية من رأسها حتى أخمص قدميها متأملة خصلات شعرها الرطبة وسروالها القطني وقميصها ومبتسمة ابتسامة لا تحمل إلا معنى واحد، الازدراء.

- الأمر يسري في عروقها. لعل أحد الأجيال شذّ عن القاعدة لكن النسل الجيد يربح في النهاية.

نظرت بري في عيني المرأة مباشرة وقالت: «أجل فعلاً، فأبواها شخصان مميزان وهي مميزة لأنهما أورثاها ذلك».

التوت شفتا السيدة وقالت: «لم يكن حفيدي مميزاً سوى بأنانيته وتصميمه على عيش الحياة التي يحب، أما زوجته فكانت ببساطة نكرة. ولن تشبه هذه الطفلة أياً منهما».

ضربت عصاها بخفة على الأرض الصلبة وهي تتقدم نحو بري التي أجابتها بهدوء: «هذه الطفلة ستكون كما تختار».

- موقف أميركي بائس.

- بل نموذج عن المواقف العصرية. وأقترح عليك أن تحتفظي بأفكارك عن تومي وكارين لنفسك إذ لا أود أن أسمعها يا سيدة ماسيني.

ابتسمت العجوز بمكر وقالت: «لن تضطري لذلك آنسة أوكونيل. لديك فرصة لرؤية لوتشيا قبل تناول العشاء وسترينها مجدداً في الصباح إن شئت وذلك قبل أن ترحلي. وأستطيع الاحتفاظ بآرائي حتى ذاك الحين».

اصدرت الطفلة صوتاً تعبر به عن سعادتها. أنّى لها أن تعرف أن

مسار حياتها يتقرر في هذه الأثناء؟ ابتسمت بري لها وأسندتها إلى كتفها قائلة: «لن نرحل من دون لوتشيا».

- وأنا لن أتخلى عنها.

- لا تملكين الخيار. الوصية...

- الوصية ليست سوى ورقة يمكن أن يحوّلها المحامون إلى قطع صغيرة ممزقة تتناثر في الهواء لقاء مبلغ جيد من المال.

- أو قد يحرصون على تنفيذ رغبات من كتبوها لقاء المال.

ابتسم جياني بلباقة وهو يدخل الغرفة. لقد وقف عند باب الغرفة ما يكفي من الوقت ليعرف أن بري لن توقف النزاع.

الطريقة الوحيدة لربح المعركة تكمن في التفوق عليها، والمعركة الكلامية لن توصله إلى أي مكان.

قال مبتسماً لبري: «كارا، أين ذهبت؟ أنهيت حمامي وخرجت فوجدت الغرفة خالية».

احمرّت وجنتا بري. هل هو مجنون ليتحدث عن علاقتهما بهذه السهولة؟

أجابت بجفاء: «أردت أن أرى لوتشيا».

نظر جياني إلى الطفلة وقال: «وها هي».

عينان كبيرتان، أنف صغير، وفم كرزي ناعم. كانت بري تنظر إليه وكأنها تنتظره أن يتكلم. فهل يفترض به أن يصف هذه الكتلة الصغيرة؟ وقال أخيراً: «إنها ظريفة».

قالت بري وهي تتبسم للطفلة ابتسامة لم تمنحه إياها من قبل: «بل إنها غاية في الروعة».

تدخلت السيدة لتقول: «إنها تتمتع بصحة جيدة، فالمربية تهتم بها بشكل ممتاز».

مدّ جياني إصبعه نحوها فأمسكته الطفلة ووضعته في فمها وبدأت تمصّه فقال: «ليس لديها أسنان!».

ابتسمت بري مجدداً: «إنها صغيرة جداً ليكون لديها أسنان. أرأيت؟ إنها تبتسم لك، أحبتك».

وتدخّلت السيدة ماسيني قائلة: «في مثل هذا العمر لا يعرف الطفل أن يحب أو يكره، ونسب المشاعر والعواطف للأطفال الرضع أمر مثير للسخرية».

حدّقت بري في المرأة: «هل تؤمنين فعلاً بما قلت؟».

- إنها حقائق علمية.

- لا عجب في ألا يرغب تومي بأن تربي ابنته.

قال جياني بسرعة: «برايانا، لِمَ لا تدعينني أحمل الطفلة قليلاً؟».

تجاهلته بري وقالت: «إن كان هذا موقفك، فلا أعرف إن كنا سنسمح للوتشيا بزيارتك في فصل الصيف حتى».

استشاطت السيدة غضباً: «ما من داع للزيارات، فلوتشيا ستسكن معي هنا».

سارعت بري نحو جياني قائلة: «متى ستخبر هذه السيدة أنها تخطت حدودها؟».

- لِمَ لا تدعيني أحمل الطفلة قليلاً؟.

لم يكن هذا ما نوى قوله ولا ما أراد فعله طبعاً، فالكتلة الزهرية تجعله يرتعد. الطفلة ليست سوى عينين واسعتين وحركة ذراعين لا تتوقف... و... هل ذاك لعاب ما يسيل من جانب فمها؟

لكنه كان مجبراً على القيام بأمرٍ ما يمنع بري من خوض الحرب. يكفيه سوءاً أنها نزلت وحدها لتواجه السيدة؟ لم تكن هذه تواجهها بل تنصب لها فخاخ وهذا أقل الطرق فعالية في التعامل مع امرأة تظن أنها تملك كوكب الأرض.

الطفلة هي الأمر الوحيد الذي يشتت انتباهها، فقال وهو يمدّ ذراعيه: «هلا سمحت لي؟».

نظرت بري إليه بقلق ثم سلمته الطفلة.

أخذها منها بحذر وهو يضع يداً عند أسفل ظهرها وأخرى حول عنقها.

وحذرته بري: «أسند رأسها».

أومأ لها وكأنه يعرف ذلك بينما هو يسوّي وضعيتها بين ذراعيه. كانت صغيرة جداً ودافئة ولذيذة الرائحة، مع أنه لم يتمكن من تحديد رائحتها تماماً.

لا بد أنه طرح السؤال بصوت مرتفع لأن بري أجابته برقة: «إنها رائحة بودرة الأطفال. ولست مضطراً لحملها هكذا».

- كيف؟.

- وكأنها من زجاج. لا تخف، لن تنكسر.

ألن تفعل؟ بدت الطفلة وكأنها ستنكسر فعلاً. لكن الناس يحملون الأطفال منذ آلاف السنين. أرخى يديه بحذر وهو يضم الطفلة إلى صدره فضحكت هذه الأخيرة.

- أنظر، إنها تبتسم لك مجدداً.

- من المبكر أن تبتسم لأحدهم. أؤكد لك أن ما تراه ليس ابتسامة.

بل هي كذلك بغض النظر عما قالته تلك العجوز الشريرة. كانت لوتشيا تبتسم له ابتسامة عريضة خالية من الأسنان.

- لم يسبق للطفلة أن رأتك فلمَ عساها تبتسم لك؟.

قالت بري برضا: «لعلها تعرف الشخصين الذين سيربيانها».

لن يدع السيدة تقنعه أن الطفلة لم تكن تبتسم لأنها ابتسمت فعلاً. ونظرت إليه السيدة ماسيني ببرود: «إنه جدال عقيم، أعدها لمربيتها فقد حان موعد نومها».

سارعت بري للقول وهي تمدّ يديها نحو الطفلة: «دعني أتمنى لها ليلة سعيدة».

وضع الطفلة بين ذراعيها وراقبها وهي تنحني فوقها تناغيها ما

جعلها تصدر أصواتاً تدل على سرور بينما هي تعبث بوجنتي بري.

إنه لأمر مذهل.

لقد تحدثا عن هذه اللحظة وعن مشاعرهما لدى رؤية تلك الطفلة، ذاك الضوء الذي شق فجأة سماء حياتيهما الصافية. ما الذي يعرفاه كل منهما عن الأطفال؟ توقع أن ينتابه الخوف بل الرعب في اللحظة الأولى التي يحمل فيها لوتشيا وقد ارتعب فعلاً. عبّرت برايانا عن المخاوف ذاتها لكنه أدرك عند مراقبتها الآن كم أن الوضع سليم. لقد أحسن توماسو وكارين الاختيار. بري ستكون أماً رائعة.

أمكنه أن يراها تحمل طفلاً آخر بين ذراعيها بينما تمسك بيدها الأخرى لوتشيا السعيدة. إلا أن الطفل الآخر سيكون له خصلات شعر بري الذهبية وعينيها الزرقاوين. . . أو عينيه الخضراوين.

تراجع جياني خطوة سريعة للوراء وقال: «برايانا، أعطي الطفلة للمربية».

- لحظة بعد.

- الآن.

نظرت إليه بعينين ضيقتين تعكسان الخطر فأجبر نفسه على الابتسام. وأخذ نفساً عميقاً مقنعاً نفسه بضرورة التزام الهدوء وهو يقول لها: «لدينا أمور مهمة نناقشها مع السيدة ماسيني. كما اعترف بأني لا أتذكر متى تناولت الطعام آخر مرة».

والتفت إلى السيدة وهو يبتسم بلباقة، ليسألها: «هل تدعيننا لتناول العشاء؟».

ضربت جدّة توماسو بعصاها الأرض وقالت: «أدعوكما لتناول العشاء الليلة والفطور صباح الغد. وأخشى بعد ذلك أن يكون عليكما المغادرة».

بدت غرفة الجلوس قزمة مقارنة بغرفة الطعام.

تناولوا الطعام بصمت، لا بل مثلوا دور من يتناول الطعام.

لم يتحدّثوا وحين همّت بفتح موضوع الطفلة وضع جياني قدمه فوق قدمها. وبعد برهة قصيرة حاولت أن تتكلم مجدداً لكن قبل أن تتمكن من نطق أي كلمة ضرب قدمها مجدداً بقوة أكبر جعلتها تحملق فيه.

كانت شرارات الغضب تتطاير من عينيها، فبادلها نظرات الغضب. كانت غاضبة من نفسها لأنها أذعنت لجياني لكن ثمة احتمال أن يكون على حق، ولعله يفهم تقاليد هذا المكان التي تعود إلى العصور الوسطى.

دخلت إحدى الخادمات على رؤوس أصابعها لتأخذ صحون التحلية ثم عادت تجلب القهوة.

قال بلباقة: «إنها اكسبرسو لذيذة لكن الوقت حان لنناقش الوضع».

رمقته السيدة بنظرة من فوق فنجان قهوتها وقالت: «سبق أن فعلنا. لا أنوي القبول بوصية حفيدي الأكبر أو اعتبارها شرعية».

- على أي أساس ستقومين بنقضها؟.

هزت رأسها وقالت: «هذا ليس قراري بل قرار المحامي. ثمة أسباب كثيرة أستند إليها بدءاً بالتأثير المفرط غير السليم لزوجة توماسو. . .».

قاطعتها بري بحدة: «ما الذي تتحدثين عنه؟ ما كانت كارين، آخ. . .».

لم تكن هذه المرّة نقرة على القدم بل ركلة على الكاحل. وقال جياني: «إن كان محاميك لامعاً فسيخبرك أن إثبات التأثير المفرط ينطوي على مخاض طويل ومكلف في المحكمة».

رفعت السيدة الفنجان إلى شفتيها: «ربما، لكن كلا الأمرين لا يعتبر مشكلة بالنسبة إليّ سيدي. والوقت المتبقي لي في هذه الحياة سيكون كافياً».

أجاب جياني: «هذا يعني أنك تعلمين أنك سوف تخسرين وجلّ ما تريدينه هو تأخير الأمور قدر المستطاع».

لاح طيف ابتسامة على ثغر السيدة العجوز. فدفع جياني بفنجان قهوته جانباً ليقول: «سيدتي، لا رغبة لدينا في أن نحرمك التواصل مع لوتشيا. سنكون سعيدين بإحضارها إلى هنا لتربها غالباً».

- إنه عرض مغرٍ لكن لا جدوى منه إذ لا يتعلق بتربية لوتشيا. حتى لو كان توماسو حياً، لما حملت هذه الزيارات أيّ معنى. فالزيارات الموسمية لا تترك أي أثر على تطور الولد. كما أنّ تربية الأولاد قد تشكّل متعة بالنسبة لبعض النساء، لكنها لم تكن كذلك يوماً بالنسبة لي. انجبت ابناً بداعي الواجب فقط وليس لإرضاء رغبة الأمومة فيّ.

قالت بري: «يا إلهي، جياني؟ هل سمعت ذلك؟».

سألها جياني متجاهلاً تعجب برايانا: «لِمَ قد ترغبين في التورط بتربية طفلة مجدداً؟».

- المربيات والممرضات والمعلمات سيقمن بذلك. هنّ من سيتورط وأنا سأدفع الأجور فقط.

كافح جياني ليحافظ على هدوئه وقال: «إذاً، إن وضعنا كل هذا جانباً، فهل تريدين حقاً تمضية الأشهر التالية، بل السنوات في قاعات المحاكم؟».

سألته بري: «جياني... لا يمكن أن تدعها...».

قال بحزم: «كل هذا الوقت، كل هذا التشهير الإعلامي. هل سيكون مجدياً من أجل اسم عائلة ماسيني، هل تظنين ذلك؟».

رقّت شفتا السيدة: «سبق وهددتني سيد فيريللي، وأعترف أن ذلك لم يرقني، لكن حفيدي لم يترك أمامي أي خيار».

انحنى جياني في كرسيه ليقول: «لم يترك لك أي خيار سوى إنفاق ثروة طائلة على الدعاوى القضائية وإظهار اسمك على صفحات

الفضائح في الصحف لتخسري القضية في النهاية؟ ستخسرين الدعوى. يجب أن تعلمي ذلك. هل ناقشت الأمر مع محاميك؟ أنا واثق من أنه سيقول لك الأمر ذاته سيدتي فالوصية التي تعبّر عن الرغبة الأخيرة وثيقة ملزمة لا سيما حين تتعلق بطفل. المحاكم تفضل دوماً تنفيذ رغبات الأهل».

رأى الفنجان يرتعش قليلاً بين يديها فتابع يقول: «هل تريدين لحفيدتك أن تكبر واسمها على صفحات المجلات والصحف؟ توماسو وكارين أرادا أن نقوم بتربية لوتشيا، أن نمنحها الحب والرعاية التي كانت لتحظى بهما منهما، وليس ليريا اسم عائلة ماسيني قصة حياة ابنتهما منشورين على صفحات الفضائح حول العالم!».

ارتجف الفنجان بين يدي السيدة التي أدركت أنها لم تعد في موقع القوة وقالت: «ممتاز سيدي. لكنك ولسوء الحظ أغفلت نقطة بغاية الأهمية».

- وهي؟.

رقت شفتاها مجدداً ووضعت الفنجان على صحنه بقوة ثم قالت: «الأخلاق والعفة. أنا أدرك أن مثل هذه الأمور ليست مهمة في عالم اليوم لكنها مهمة جداً في عالمنا هنا».

عندئذ، قالت بري: «رائع، إنها مستعدة لتجاهل رغبات توماسو وكارين ولتحوّل الطفلة لعلكة في فم الصحافة والإعلام. ومع ذلك تملك الجرأة للتحدث عن...».

ابتسم جياني مع أن الإبتسام هو آخر ما يرغب في القيام به: «بري».

كانا على وشك إنهاء الأمر، هذا ما أخبره به حدسه لكن برايانا قد تفسد الأمور إن سمحت للغضب أن يسيطر عليها.

دفع بكرسيه إلى الوراء واستدار حول الطاولة إلى حيث كانت تجلس. كانت يداه قاسيتين عندما وضعهما على كتفيها لكن صوته أتى

www.elromancia.com

ناعماً وهويقول: «بري، دعي السيدة تتكلم».

- كنت صريحاً سيد فيريللي وينبغي أن أتكلم أنا أيضاً بصراحة. سأقول لك إنك محق. ستكون أفعالي مجرّد تأخير وتأجيل للأمور.

- لماذا إذاً....

ضغط جياني على كتفي بري فتأففت لكنها صمتت.

- محاميّ رجل ذكي وسيحرص على أن يستغرق البت في مسألة الوصاية على لوتشيا سنوات طوال. وعندما يحين الوقت لتتمتعا بالوصاية عليها ستكون قد كبرت بما يكفي وتعلمت المبادىء الأخلاقية المناسبة. ولن تتأثر حياتها بالعيش مع رجل وامرأة يعيشان في الخطيئة.

وظهرت ابتسامة ماكرة على شفتي العجوز التي رفعت صوتها عمداً عند قول الكلمات الأخيرة فأطلقت برايانا ضحكة من الأعماق.

استرقت نظرة إلى جياني الواقف وراءها من دون حراك وكأنه مجرّد تمثال حجري وسألت: «هل هي جدية؟ ستحتفظ بالطفلة الصغيرة هنا معها لأنها تظن أننا نعيش معاً في الخطيئة؟».

أجابها جياني برقة: «إنها محقة».

- أنا جدية جداً في الواقع. والآن هلاّ عذرتماني، صار الوقت متأخراً...

تنحنح جياني وقال: «سيدتي».

تنهدت جدّة توماسو بانزعاج وسألت: «ما الأمر الآن؟ لا يهمني أن أسمع ما ستقوله».

فقال لها جياني: «بل على العكس».

كانت يداه على كتفي بري التي نظرت إليه لترى عينيه تلتمعان ما جعل معدتها تتشنج. أخذ نفساً عميقاً وقال: «كان يمكن أن نوفر على أنفسنا عناء النقاش سيدتي. فقد شرفتني آنسة أوكونيل بعد ظهر اليوم بقبول عرضي للزواج منها».

١٠ - ساكون صبوراً

أمضت بري الدقائق التالية من دون أن تنبس ببنت شفة.

يداه على كتفيها وصدمتها مما قال أخرستها، لكن ما إن أغلق الباب وراءها حتى ابتعدت عنه وفتحت ذراعيها على مصراعيهما وانفجرت قائلة: «هل أنت مجنون؟ أخبرت تلك المرأة أني وافقت على... وأني قلت لك إني... لا أستطيع أن أقول الكلمة حتى. يا إلهي فيريللي، ما الذي حصل لك؟».

- اهدأي.

ازدادت حدّة صوت بري: «أهدأ؟ أتطلب مني أن أهدأ؟ هل تظنها مغفلة؟ هل تظنها ستصدق فعلاً ما قلته لها؟ هل تظن أنها...؟».

زمجر جياني وقال: «اللعنة، أخفضي صوتك! ستسمعك».

كررت بري غير مصدّقة: «ستسمعني؟ أتعتقد أنها لن تكتشف تلك الكذبة؟».

- هل سمعتِ جوابها أم أنك كنت شديدة الانشغال بالتحضير للهستيريا؟.

- سمعتها، اتفقنا. قالت إنها متفاجئة وإن محاميها أخبرها أننا بالكاد نعرف بعضنا البعض.

- وأنا قلت إن محاميها مخطئ، وإن صهرك توماسو وأنا صديقان منذ الصغر وإننا كنا نرى بعضنا البعض منذ وقت طويل.

- وتظن أنها صدقت؟

- لا يهمني البتة إن صدّقت أم لا. ما يعنيني هو آخر شيء قالته.

www.liromancia.com

- تعني أنها سرّت لمعرفة أن لوتشيا ستكبر ضمن أسرة؟ وأنه يمكنها أن تطمئن الآن أن تربية الطفلة لن تمسّ اسم عائلة ماسيني؟.

تبختر جياني في مشيته نحو النافذة ثم استدار نحوها مجدداً: «بالضبط. هذا كل ما يهمها».

- لكن ثمة مشكلة صغيرة فيريللي، إذ أننا لن نتزوج. ولا يهمني إن كانت ستسمعني الآن لأنها سرعان ما ستكتشف الأمر. لطالما ظننت أن المرء يحتاج لقدر معين من الذكاء ليتخرّج من كلية الحقوق. لكم كانت مخطئة!.

حملق جياني في برايانا. يا للروعة! تناول العشاء مع عجوز شريرة وها هو الآن يتناول التحلية مع امرأة مجنونة.

وتابعت تقول: «اختصاصك هو تعقيد الأمور».

يا إلهي! لِمَ لا تتوقّف عن الجدل؟ ما حصل قد حصل.

قال لها: «كفى».

- لم أبدأ بعد! كيف أمكنك ذلك؟ ما الذي كنت تفكر فيه؟ لِمَ قمت بحق السماء. . . .

زمجر مجدداً: «كفى! والآن، اجلسي واسمعي».

- أسمع ماذا؟ لا يسعني أن أفكر بشيء يمكنك قوله أو . . .

- دعيني أتكلم.

- سبق وفعلت ذلك وانظر إلى أين وصلنا؟ إلى الفوضى، هذا ما وصلنا إليه.

- إخبار السيدة بمسألة زواجنا مجرّد وسيلة لجأت إليها للقضاء على حجّتها.

- تعني أنه عرض فارغ؟

- إن توقفت عن التصرّف كالمجانين وبدأت تفكرين في الأمر فقد تفهمين.

- مما رأيته على ملامح وجهها، بدا أحياناً أنها صدقت القصة

وفي أحيان أخرى بدا أنها لم تصدقها.

- أعترف أنها بدت مشككة.

أطلقت بري ضحكة: «مشككة؟ يا لها من كلمة جميلة للتعبير عن الأمر».

شعر جياني بإحدى عضلات وجهه تشتد. فقال وهو يعقد ذراعيه: «علينا أن نجعلها تصدق أم أنك لا ترغبين في تربية لوتشيا؟».

- القانون إلى جانبنا، لقد قلت لي ذلك عشرات المرات.

- إنه كذلك، لكن السيدة محقة في أن الأمور يمكن أن تسير ببطء.

- لكن توماسو وكارين تركا وصية.

ردّ جياني غاضباً: «استعملي رأسك برايانا، بحق السماء! لقد أعلنت عدم اكتراثها بها. إنها غير معنيّة بها».

مرّر جياني يداً في شعره وابتعد عنها بضع خطوات ثم عاد نحوها. بري كانت على حق، فقد أخبرها أن القانون إلى جانبهما. تنهد جياني يفكر ثم دسّ يديه في جيبيه وقال: «حسناً، نحن أمام خيارين. أحدهما هو خطف لوتشيا».

- يناسبني ذلك.

- سيتم توقيفنا في باليرمو، هذا إن وصلنا إلى هناك أصلاً ولم يتم توقيفنا قبلاً. ونوضع في السجن للسنوات المئة القادمة.

- لا تصرخ في وجهي، اتفقنا؟ كل ما عليك فعله هو إبراز الوصية وإخبارهم أنها قانونية.

- الوصية قانونية لكن الخطف ليس كذلك.

على الرغم من أنها مقتت الاعتراف بالحقيقة، لكنه محق. تنهدت بري وفركت جبينها حيث بدا أن الألم قد استقر: «قلت إننا أمام خيارين فما هو الثاني؟».

- يمكننا أن نعدّ لمعركة قضائية. سأتصل ببعض معارفي، وأطلب

www.elromancia.com

منهم أن يرشدوننا إلى محام جيد هنا. ونترك العمل لمحامي كلا الطرفين ونرحل نحن... وإن حالفنا الحظ سنحصل على الوصاية حين تكون لوتشيا قد بلغت العمر الذي يخولها الذهاب إلى المدرسة.

- هل أنت جاد؟.

- يمكنهم تأجيل الأمور إلى ما لا نهاية. إنه أمر مسلّم به في المحاكم. ونحن نتعامل مع امرأة نافذة، تعرف جيداً ماذا تفعل.

حدّقت فيه بري تسأله: «هل تعني أنها ستربح القضية؟».

جلس جياني القرفصاء أمامها وقال: «يمكن لها أن تكسب إن أعلنا استسلامنا، وهذا ما لن نفعله. لقد طلب توماسو طلباً أخيراً وسأنفذه له».

هدّأت جملته الأخيرة من روعها فهي تعلم أنه يعني ما قاله. لقد تعلّمت الكثير من الأمور عن هذا الرجل في فترة قياسية، وأهمها أنه رجل يلتزم بكلمته.

أجابت بهدوء: «أنا أيضاً سأنفذ رغبة كارين الأخيرة».

- نحن متفقان. علينا أن نفعل كل ما يستلزمه الأمر.

- وهل تظن فعلاً أن البت في القضية سيستغرق أشهر؟

- بل سنوات.

أخذ يديها بين يديه فشعر بهما باردتين. أراد أن يضمها بين ذراعيه حتى تشعر بالدفء من جديد وحتى تلتمع عيناها مجدداً بالحياة، لكنه سيزيد الأمور تعقيداً.

رفعت يدها إلى فمها وقالت: «يا إلهي! قد ينتهي الأمر بأن تعيش الطفلة في هذا المكان فترة طويلة».

ضغط بقوة أكبر على يدها: «ربما، لكننا لن نسمح لذلك بأن يحصل».

ابتلعت بري ريقها بصعوبة وقالت: «هل تعتقد، وبصدق، أن السيدة ماسيني قد تتراجع إن ظنت أننا سنتزوج».

- أجل.

- جياني، لقد رأيت التعبير على وجهها. لم تصدقك.

كان يعلم أنها محقة فهو يتذكر التعبير الذي ظهر على وجه السيدة ونبرتها التهكمية.

أطلق ابتسامة ماكرة وقال: «حسناً ربما ستصدقني».

لامست بري وجنته وقالت بنعومة: «أنت رجل طيب جياني فيريللي إذ خطرت لك هذه الفكرة وإن كانت لن تنجح».

أخذ جياني يدها مجدداً وحضنها بكلتي يديه: «يمكن لها أن تنجح كارا».

- كيف؟ جدّة توماسو ليست غبية، فماذا علينا أن نفعل؟ نعدها بأن نرسل لها بطاقة دعوة لحضور حفل الزفاف؟ لن تترك الطفلة بناءً على بطاقة دعوة!.

رفع يدها إلى شفتيه وطبع قبلة حادّة قائلاً: «أنت محقة، ومع ذلك ثمة طريقة ما».

- أي طريقة؟.

- لن تعجبك.

- هل هي قانونية ومشروعة؟

أومأ برأسه إيجاباً.

- هذا جيد.

- بل أفضل من ذلك، إنها مضمونة.

ابتسمت وسألته: «إن كانت قانونية ومضمونة النتائج فلِمَ لا تعجبني؟ هيا تكلّم».

التقت نظراتهما وكادت بري تسمع دقات قلبها في أذنيها أثناء لحظة الصمت التي سادت قبل أن يقول: «نتزوج فعلاً».

بعد ساعة من الوقت كان كل واحد منهما يجلس في ناحية من السرير وبري لا تزال تهز رأسها رافضة الفكرة.

www.elromancia.com

أوضحت السيدة أن قلقها الوحيد يتعلق بالصيت وكذبة واحدة ستحل المشكلة وتصبح الطفلة لهما. ولا بد أن جياني قرأ تغيراً ما في ملامح وجه بري إذ اقترب منها ووضع يديه على كتفها. كانت لمسته خفيفة وصوته هامساً وهو يقول: «لا نملك أيّ خيار بري. علينا القيام بذلك من أجل توماسو، من أجل كارين، ومن أجل الطفلة».

رفعت نظرها إليه لتقول: «إن قمنا بهذا فكم من الوقت يستغرق...»

- بقدر ما يسمح به القانون الإيطالي. وإن حالفنا الحظ، ستصبحين زوجتي قبل نهاية الأسبوع.

زوجته، ستكون زوجة جياني. بدأت بري ترتجف وقالت: «لا أستطيع، لا يسعني أن أتخيل، لا يمكنني...».

اقترب منها أكثر وضمها بين ذراعيه قائلاً: «أنا يمكنني».

أصدرت بري صوتاً خافتاً واستندت إليه، فزمجر جياني وطوّقها بشدّة، وضاعت في عالمه.

أطلقت صرخة تحذيرية خافتة وتحررت من بين ذراعيه وهي تهمس: «لا تفعل، لا يسعني أن أفكر عندما... عندما...».

أجابها بحدّة: «لاتفكري! قولي نعم وحسب».

شعرت برايانا بألم مفاجيء يعتصر قلبها. أوشكت على البكاء ولم يسعها أن تتخيل السبب، فطلب جياني جاء لقضاء مصلحة وحسب، وجوابها يجب أن يكون مشابهاً.

قالت: «إن وافقت، فسيكون ذلك بناء على شروط معينة».

- ما هي؟

- لن يكون زواجاً حقيقياً.

لاحت ابتسامة متوترة على ثغره وهو يقول: «أنت من لم يتوقف عن تذكيري بأن السيدة ليست امرأة غبية. فهل غيّرت رأيك كارا؟ هل صرت تعتقدين فجأة أنه يكفي أن نغادر ليوم واحد ونعود ونخبرها أننا

أصبحنا زوجاً وزوجة لتصدقنا؟»

ارتجفت بري وهي تأخذ نفساً عميقاً وتقول بحذر: «كلا، كلا، أعلم أنها لن تصدق قصة كهذه».

- ما الذي تقترحينه إذاً؟

- نتزوج كما اقترحت ونأخذ الطفلة ونعود إلى الولايات المتحدة حيث نبدأ إجراءات الطلاق.

بردت عيناه وهو يقول: «آه، فهمت».

أجابت بسرعة، «إنها الطريقة الوحيدة لمعالجة الأمر، هذا سيرضي السيدة».

- والطلاق سيرضيك أنت.

شعرت بالجفاف في حلقها وابتلعت ريقها بصعوبة قبل أن تقول: «ويرضيك أنت أيضاً، فأنت ترغب بالزواج بي بقدر ما أرغب أنا بالزواج بك، أليس كذلك؟».

توترت عضلات فك جياني: «صحيح، تماماً».

مرّرت بري طرف لسانها على شفتها السفلى ترطبها وقالت: «جيّد، ثمة أمر آخر بعد».

ظهرت ابتسامة متوترة عند زاوية شفته: «ماذا تريدين كارا بعد أن اتفقنا على زواج سريع وطلاق أسرع؟».

- شرط آخر بعد.

- ماذا؟.

ترددت فعلم أنها تفكر في أمرٍ لن يحبه، وأنبأه حدسه بأنها ستقول شيئاً لن يعجبه. لكنه لم يحب شرطها الأول، أليس هذا مثيراً للجنون؟ لو لم تقترح عليه مسألة الطلاق لفعل هو.

لم يكن الزواج سوى عبارة عن خدعة، زواج لتنفيذ رغبة توماسو وكارين.

- ما هو هذا الشرط؟.

www.elromancia.com

- سيكون زواجنا صورياً على الورق فقط.

ضاقت عيناه وهو يقول: «ماذا يفترض بذلك أن يعني بحق السماء؟».

شعر بنبضاتها تتسارع وقلبها يخفق بقوة وهي تقول: «لن نكون زوجاً وزوجة حقيقيين، أنت تفهم ما أعنيه».

قوّس جياني أحد حاجبيه: «وما السبب؟».

- سيكون ذلك خاطئاً.

اسودّ وجهه وقال: «كلانا راشد، وأحدنا منجذب إلى الآخر. فلِمَ لا نكون زوجة وزوجاً حقيقيين؟».

- لأننا يجب ألا نكون كذلك، فهذا يزيد الأمور تعقيداً. وقد أخبرتك هذا من قبل.

- حين قلت ذلك لم نكن أكيدين مما ينتظرنا لكننا الآن نعلم. لقد رأينا الطفلة وعرفنا لما تعترض جدّة توماسو على إعطائها لنا.

اقترب جياني خطوة منها وحضن وجهها بين يديه وقال: «عرفنا كيف نبطل مفعول اعتراضها. فكيف يمكن أن نعقّد الأمور إن كنا زوجاً وزوجة حقيقيين؟».

- نحن وصيان على لوتشيا يا جياني، وسنتولى هذه المسؤولية لفترة من الزمن. الأمر أشبه بشراكة.

- لن أناقش هذا الأمر، هذه هي شروطي.

قطب جياني يفكر في أنها محقة. لكنه يريدها أن تكون زوجته بكل ما للكلمة من معنى وهو يعلم أنها تريده كذلك.

وأضافت بصوت مرتعش قليلاً: «لن نعيش كزوجين جياني. إن أردتني أن أوافق على الزواج بك، فعليك أن توافق على هذا الشرط».

تشوشت أفكاره وقال بعينين غائمتين: «دعيني أستوضح الأمر. أنا أمنحك اسمي وأحصل بالمقابل على سرير فارغ وطلاق سريع. هل أنا محق؟».

شعرت بري بالتوتر. كيف نسيت أنانية هذا الرجل وغروره؟ ردّت رأسها إلى الوراء وقالت: «كم هذا جميل! أتريد أن تمنحني اسمك فعلاً؟ اسمع يا سيدي، الأمر الوحيد الذي ستمنحني إياه هو زواج مؤقت لا أريده».

- كفي عن التلويح بإصبعك في وجهي؟.

- نحن نفعل هذا من أجل صديقينا وابنتهما وليس من أجل سريرك.

- قلت لك أن تكفّي عن التلويح بإصبعك في وجهي برايانا.

- هذا عرضي لك، إما أن تقبله وإما أن ترفضه. سنقوم بالأمر على طريقتي أنا... تباً لك فيريللي! ما الذي تفعله؟.

عاد يضمّها إليه بقوّة فشعرت بعروقها تنفجر، وكيانها يذوب تحت لمساته. ثم أبعدها عنه وقال باقتضاب: «قاعدة التفاوض الأولى تقضي بألّا تضعي شروطاً تعجزين عن تطبيقها بنفسك».

همست بري بما يشبه فحيح الأفعى: «أيها السافل، المتوحش، عديم الفائدة...».

ارتفعت يد بري نحو وجهه فأمسك بها ولفّ ذراعها وراء ظهرها قائلاً: «احاذري مما تقولينه لي كارا، وما تفعلينه. فأنا لا أزال في الأعماق صقلياً ولا أتقبل الإهانات ببساطة وسهولة».

ودفعها عنه قليلاً فابتعدت وهي لا تزال ترتجف غيظاً...

زمجر قائلاً: «السرير كله لك. وإن قلت كلمة أخرى الليلة، فأعدك بأنك ستندمين».

زمجرت بري قائلة: «ما أندم عليه فعلاً هو أني التقيت بك أصلاً».

لكنها لم تنطق بهذه الكلمات إلا بعد أن دخل إلى الحمام وصفق الباب وراءه.

حملق جياني في صورته بالمرآة.

www.elromancia.com

بدا أشبه برجل على حافة الجنون، رجل على وشك أن يضرب أي شخص يصادفه ويصب عليه غضبه كله.

زمجر مجدداً ثم فتح المياه الباردة وأخذ يغسل وجهه.

لم يكن رجلاً يفرض نفسه على أي امرأة، لكن المشكلة تكمن في عجزه عن الابتعاد عن هذه المرأة تحديداً. ولهذا شعر بغضب شديد.

حدّق جياني في المرآة مجدداً فبدا له وكأن رجلاً غريباً يبادله النظر.

تعقيدات؟ أراد أن يضحك من هذه الكلمة الأبسط من أن تعبّر عن حالته. كان وضعه مقلوباً رأساً على عقب. كان وسط النار بين ألسنة الحضانة من جهة ورباط الزواج من جهة أخرى.

لا ترغب في أن تكون زوجة فعلاً. وماذا في ذلك؟ سيعاني كلاهما من لعنة الزواج لأسبوع من الزمن؟ وماذا في ذلك؟ سيتزوجان ويعودان إلى الديار وتصبح قصة زواجهما من الماضي.

تبسيط الأمور جعله يشعر أنه أفضل حالاً. سيعود الآن إلى الغرفة ويتصرف كإنسان متحضر حتى أنه سيعتذر من برايانا لأنه فقد السيطرة على أعصابه.

إلا أنه وجدها نائمة حين خرج. أطفأ جياني الأنوار وتعثر في طريقه نحو المقعد غير المريح حيث تمكن من النوم لبضع ساعات.

استيقظ مع الفجر وهو يشعر بالألم في جسمه كله وكأن أحدهم ضربه. نزل السلالم متجهاً نحو المطبخ وأعدّ لنفسه فنجان قهوة ثم سجن نفسه في غرفة المكتبة لساعتين كاملتين حيث أجرى سلسلة من الاتصالات.

عليه أن ينتظر حتى تصحو بري وسيخبرها بالترتيبات التي اتخذها ويعتذر عن تصرفاته المجنونة الليلة الماضية. سيؤكد لها أنه يرضى بكافة شروطها بما في ذلك الشرط الأخير. وفتح جياني الباب وتسلل إلى الغرفة.

ناداها برقة: «بري».

وحين فتحت عينيها أخبرها أنهما سيتزوجان عند المساء.

اتسعت حدقتاها وسألته بذهول: «عند المساء؟».

بدت عليه علامات الرضا لهدوئها وأجابها: «أجل، كلما أسرعنا في إنجاز الأمور كان أفضل. اضطررت لبذل بعض الجهد لتسير الأمور جيداً، لكن الأمور رتّبت».

جلست في السرير تستند إلى الوسادات ورفعت خصلات شعرها عن وجهها: «نتزوج، أنا وأنت».

- أجل. ثمة أمر آخر كان يجدر بي إخبارك به الليلة الماضية.

كاد يتلفظ بالاعتذار لكنها كانت جميلة جداً مفعمة بالأنوثة.

سألته: «ماذا؟».

أخذ نفساً عميقاً وقال بصوت أجش: «سأكون صبوراً معك. سأنتظر حتى تعودي إلى رشدك كارا. بعدئذ، سآخذك إلى السرير».

١١ - تنهيدة الأسلاف

ليلة واحدة على الأراضي الإيطالية كانت كافية لتحوّل جياني فيريللي إلى صقلي مغرور من رأسه حتى أخمص قدميه. لحسن الحظ أنه يتمتع بكل هذه الصفات السيئة والأنانية ما يسهل عليها طرده من تفكيرها.

كانت غاضبة جداً حين صعّد الموقف بينهما لدرجة التحدي بحيث لم تعد قادرة على التفكير بشكل واضح. ومضت ساعات طويلة قبل أن تهدأ بما يكفي للتفكير في جملته.

ستتجاهلها ببساطة.

كان يعلم أنها لن تدير ظهرها للطفلة وستقبل بالزواج به. وهي تعلم أن جياني سيصبر وينتظرها طويلاً حتى تأتي إليه وتستسلم بين ذراعيه.

لكنها لم تكلف نفسها عناء الإجابة بل تجاوزته برأس مرفوع نحو الحمام وصفقت الباب بقوة. وعندما عادت إلى الغرفة كان قد رحل. ونجحت في تجنبه طوال فترة الصباح لكنها دخلت المكتبة عند الظهر لتجده يتحدث على الهاتف الخلوي. استدارت على عقبيها وعادت أدراجها لكنها تمكنت من سماع جزء من الحديث.

كان يقول: «أجل، هذا صحيح. موعد الطائرة عند الثامنة من هذا المساء».

إنه يرتب أمر رحلة العودة إلى الديار. لن ينتظرا طويلاً للبدء بمعاملات الطلاق فسرعان ما يودّعان إيطاليا ويصلان إلى أميركا.

سرعان ما ستتمكن من أن تقول لزوجها العتيد أن يذهب إلى الجحيم.

لكم ستكون هذه اللحظة ممتعة!

هذه الفكرة رسمت الابتسامة على ثغرها وأبقتها طوال النهار، تماماً كما فعلت الطفلة. بعدئذ، نزل جياني إلى الحديقة، إلى حيث جلست على العشب مع لوتشيا معلناً لها أنه لم يتبقَّ أمامها سوى ساعة واحدة فقط. كانت تعلم ماذا يقصد. ساعة حتى تصبح زوجته. وشعرت بموجة رعب لكنها تخلصت منها قبل أن يلاحظ.

سألته بعذوبة: «ساعة قبل ماذا؟ قبل أن نتزوج؟ كدت أنسى».

لم يبتسم لها بالمقابل بل بدا مقطباً وواجم الملامح. كان وسيماً كعادته دوماً ببذلته السوداء وقميصه الحريري الأبيض.

كانت عشرات النساء ليتخلين عن أزواجهن من أجل هذه اللحظة. كانت تعلم ما الذي يريده منها، لم ينشأ أن يجعلها زوجته وحسب بل أن يجعلها شغوفة به وعاجزة بشكل يثير الشفقة فيتركها مكسورة القلب حين تنتهي مزحة زواجهما هذه.

أجابت بصوت هادىء: «سأكون جاهزة، لا تقلق».

افترّ ثغره عن ابتسامة جعلتها تبتلع ريقها وقال بهدوء: «إني قلق بشأن أمر واحد وحسب كارا».

تبختر مبتعداً فيما سلّمت الطفلة للمربية وهي تركز على حقيقة سفرهما على متن الطائرة نفسها قبل أن يجفّ حبر وثيقة الزواج.

كان حفل الزفاف مختصراً. وحين انتهى الحفل صافحت السيدة جياني كما صافحتها هي، أما الممرضة فدمعت عيناها وطبعت قبلة سريعة على وجنتها.

قالت لهما السيدة: «هذا يرضيني».

ها قد منحتهما الملكة بركتها فشعرت بري بزوال شيء من توترها.

بعد أقل من ساعتين سيكونان على متن الطائرة التي تعيدهما إلى الولايات المتحدة. همست وهي تميل برقة نحو جياني: «جياني، ألا

تظن أننا يجب أن ننطلق؟».

خفض نظره نحوها وهمس لها: «أعلم أنك تريدين أن نكون وحدنا كارا لكننا نستطيع حتماً أن نمضي بضع دقائق مع الضيوف!».

الضيوف؟ أي ضيوف؟ فالسيدة والممرضة هما الشاهدتان. لكن بري مضت في اللعبة فشبكت ذراعها بذراعه. لِمَ لا تعذبه ولو قليلاً؟.

- أنا واثق من أن السيدة ماسيني ستتفهم عزيزي. يمكنك الاتصال بها من الطائرة.

أفتر ثغر جياني عن ابتسامة وسألها: «عن أي طائرة تتكلمين عزيزتي؟».

- تلك التي تغادر بالبرمو عند الثامنة، تلك التي ستأخذنا إلى نيويورك.

لف جياني ذراعيه حول خصرها وقرّبها منه قائلاً: «تلك الطائرة ستقلع من دوننا لسوء الحظ».

حدّقت بري فيه بذهول: «لكني سمعتك تجري الحجوزات...».

ابتسم ابتسامة لم تصل سوى إلى ثغره: «بل كنت ألغي الحجوزات التي أجريتها للمغادرة إذ اقترحت السيدة ألا نرحل الآن».

حاولت بري الابتعاد عنه لكنه أحكم قبضته حولها وقالت: «اقترحت السيدة؟ وأذعنت لاقتراحها هكذا ببساطة؟ ألم يخطر لك أن تسألني عما أريده أنا؟».

أجاب ببساطة: «يمكننا أن نعتبر الأيام القليلة المقبلة التي سنمضيها هنا شهر عسلنا».

كانت تعلم أنه يتكلم على هذا النحو من أجل السيدة لكنها لم تأبه. هل يظن أن زواج الخدعة هذا يمنحه الحق بأن يتخذ قرارات أحادية الجانب؟

- أريد العودة إلى الديار الآن، فيريللي.

قال بتجهم: «ستفعلين كما يطلب منك برايانا».

طرفت بري بعينيها فرئيس البلدية والمترجم والسيدة وحتى الممرضة كانوا كلهم يراقبون المشهد باهتمام إنما ليس بقلق.

كانت في بلد غريب من دون مال أو أصدقاء، حتى أنها لا تتقن اللغة. وأدركت برايانا للمرة الأولى مدى شعورها بالوحدة.

وبعد مرور ساعة تبين أن جياني حجز لهما جناحاً في الفندق مطلاً على البحر. ونظرت إليه بغضب، وقالت له من بين أسنانها: «كان أمامك النهار بأكمله لتخبرني بذلك».

أطلق جياني تنهيدة من الأعماق. لِم خطر له أنهما بحاجة لفندق رومنسي، لم يعرف السبب. فزواجهما لم يكن سوى زواج مصلحة. وكأن هذا لا يكفي، كان عليه أن يصغي الآن إلى عروس ناقمة غاضبة. وظل يذكر نفسه بأنها غاضبة لأنهما لم يغادرا صقلية بعد.

لكن ليس عليها أن تبدو وكأنه قد حكم عليها بالسجن المؤبد برفقة بربري متوحش.

قال مقطباً: «سبق وأخبرتك أن السيدة فاجأتني بهذه المعلومات في وقت متأخر من بعد ظهر هذا اليوم».

- لن تعطينا الطفلةحتى تقتنع بأننا متزوجان فعلاً؟.

- أجل.

- نحن متزوجان طبعاً! ما الزفاف برأيها؟.

- تظنه خدعة! لقد كشفت أمرنا.

- قلت لك إنها ستفعل، ألم أقل لك ذلك؟.

ضاقت عينا جياني وهو يقول: «عليك أن تقولي الحقائق كما هي. ما قلته هو إنها قد تكتشف مزاعمنا في ما يتعلق بهذا الزواج».

- بل مزاعمك أنت فيريللي وليس مزاعمي.

فكر في الإجابة لكنه قرر ألّا يجيب، فالجدال مع برايانا أشبه بمباراة كرة المضرب، لا يتوقف.

- وافقت على أن تعطينا الطفلة عند نهاية الشهر.

- نهاية ماذا. . .؟ هذا يعني ثلاثة أسابيع إضافية! ما الذي يفترض بنا أن نفعله طوال هذه المدّة؟.

- استأجرت منزلاً.

- هل خطر لك أن تستشيرني في أي موضوع؟.

- لم يتسن لي الوقت.

- أرى ذلك. لم يكن أمامك من وقت إلا للتخطيط لاستدراجي إلى سريرك!

تحرّك جياني سريعاً ما جعلها تتراجع فتعثرت واستندت إلى الحائط خلفها. لكن جياني أمسك بها من معصميها ثم زمجر وهو ينحني فوقها: «وأخيراً ثمة أمر نتفق عليه لأن وجودك في ذاك السرير خطأ».

- يسعدني أنك. . . .

- لا أعلم ما الذي كنت أفكر فيه فالرجل يرغب في امرأة في سريره وليس نكدة سليطة اللسان.

ترك معصميها وتراجع خطوة إلى الوراء يقول، «لا تنتظريني فسأتاخر في العودة».

حملقت بري فيه قبل أن تقول بعصبية: «سيكون بابي مقفلاً عند عودتك. تذكر هذا جيداً».

التقط جياني سترته ووضعها على أحد كتفيه: «ثمة أريكة أنام عليها. ولن أكون مضطراً لأن أكسر ظهري على مقعد للأقزام الليلة».

- هل سمعتني فيريللي، لقد قلت لك. . . .

استدار نحوها ويده على قبضة الباب وقال بهدوء: «سمعتك أوكونيل، لا تقلقي. لا أنوي مطلقاً مخالفة شرطك «القيّم» حول جعلك زوجة لي».

صفق الباب وراءه وأخذت بري تحدق في الغرفة الفارغة وقد امتلأت عيناها بالدموع لسبب غير مفهوم.

همست تقول: «يسرني سماع ذلك، إلا أن شهرتي لم تعد أوكونيل».

واستندت إلى على حافة السرير وأخذت تبكي.

كان الليل مظلماً وثقيلاً. وما من قمر أو نجوم تضيء السماء.

عاد جياني إلى الفندق ودخل الردهة بعد أن أومأ للحارس الذي بدا مندهشاً لرؤيته. من الواضح أنه لم يكن مكاناً يجول فيه الناس بمفردهم في الليل. أوصله المصعد إلى الطابق العلوي ومشى جياني بهدوء نحو جناحهما ووضع المفتاح في الباب وفتحه. كانت غرفة الجلوس معتمة بالكامل. أغلق الباب وراءه ووقف ليسمح لعينيه بأن تتكيّفا مع الظلمة.

أول ما لاحظه هو أن باب غرفة النوم مفتوح فأخذ قلبه يخفق بقوة. لعل بري تركته مفتوحاً من دون أي سبب، لعلها عادت إلى رشدها. لعلها تنتظره في السرير الذي يفترض أن يكون لهما. . .

لن يحصل هذا أبداً. إنه محظوظ لأنها لا تنتظره في غرفة الجلوس وهي تحمل شيئاً ثقيلاً لتضربه به لحظة دخوله. حجر كبير ربما، وجعلته الذكرى يبتسم.

خبت ابتسامته حين خطر له أنها تركت الباب مفتوحاً لسبب واحد فقط وهو أنها تركته. لعلها طلبت سيارة أجرة. . . المسألة الأهم هي أنها رحلت.

رمى سترته جانباً، وسارع إلى الغرفة وأضاء النور.

كان محقاً. لقد رحلت. السرير لم يمس. . . لكن حقيبتها لا تزال موجودة. . .

انقبض وهو يسير نحو الحمام يفتح الباب ويسأل: «بري».

كان الحمام فارغاً. وعاد ينادي مجدداً: «بري، برايانا؟».

الشرفة خالية أيضاً. وتوجّهت نظراته نحو البحر الذي تتلاطم أمواجه بقوة.

لا، يا إلهي لا...

- جياني؟.

اندفع مسرعاً نحو غرفة الجلوس حيث وصل الضوء الخافت المتسرّب من غرفة النوم إلى الأريكة، والمرأة الجالسة عليها.

- بري.

أسرع إليها والكلمات الغاضبة تتكون في حنجرته لكن حين رآها أدرك أن غضبه ليس سوى غطاءً للشعور بالارتياح الذي تملكه وأذهله.

كانت زوجته تجلس على حافة الأريكة وهي ترتدي أحد الأثواب الحريرية التي تعود للفندق وشعرها الذهبي يتدلى على كتفيها. بدت عيناها حين رفعتهما إليه منتفختين وحمراوين.

أخذت الاحتمالات تتزاحم في رأسه يرافقها غضب أوصله إلى حدّ الانفجار. هل اقتحم أحدهم الغرفة؟ هل آذاها أحدهم؟

جلس جياني أمامها القرفصاء وأخذ يديها الباردتين بين يديه: «ماذا حصل؟».

خفضت نظرها إليه وهزت رأسها.

- اللعنة! قولي لي ماذا حصل! هل آذاك أحدهم؟

هزت رأسها مجدداً فشعر ببعض الثقل يزول عند صدره وقال بنعومة أكبر: «كارا، تحدثي إلي، قولي لي لما تبكين».

همست: «لا أعلم، لا أعلم لما أبكي».

لقد غادر جياني منذ ساعات عدة، فبكت طوال ذلك الوقت من دون أن تعرف السبب. ربما لأنه خطر لها أنه يقود بسرعة جنونية فتصوّرته ميتاً على الطريق. ربما لأنها تصوّرته يجلس في إحدى الحانات يبتسم لامرأة. أو ربما لأن هذه ليلة زفافها سواء أكانت حقيقية أم لا، ولأنها أمضت كل دقيقة منذ وافقت على الزواج منه وهي تكذب عليه وعلى نفسها وتدّعي أنها لا تريده أن يأخذها بين

ذراعيه ويضمها إليه ويهمس كلام الحب في أذنيها.

أزاح جياني الخصلات المتجعدة عن وجنتيها، وهمس: «برايانا، كارا حبيبتي، أنا آسف».

هزت رأسها وقالت: «ليس عليك أن تأسف. كنت محقاً. علينا أن نقبل بالزواج وأن نبقى سوياً مدة طويلة لنقنع السيّدة بأنّ زواجنا حقيقي».

تنحنح وقال: «كان يجب أن استشيرك أولاً. لكني... لكني غير معتاد على الشراكة في القرارات. وما كان عليّ أن أتوقع منك شيئاً».

حضن وجهها بين يديه وتغلغلت أصابعه في شعرها قبل أن يضيف: «لم أتوقع منك أبداً أن تذلّي نفسك كارا. يجب أن تعلمي ذلك بالرغم من الكلام الأحمق الذي تفوهت به».

افترّ ثغر بري عن ابتسامة مترددة وقالت: «أعلم ذلك».

- مهما رغب الرجل في المرأة، فيجب أن ترغب فيه أيضاً.

أطلقت ابتسامة مترددة أخرى: «أتعلم، كلما طال بقاؤنا في صقلية كلما تكلمت كالصقليين».

ضحك برقة وقال: «الصوت الذي تسمعين ليس صوت البحر بل تنهيدة تأييد جماعية من أسلافي».

ساد الصمت لبضع لحظات ثم زفرت بقوة قبل أن تقول: «إن كنا نتكلم عن الحقائق...».

- أجل؟.

رفعت بري نظرها إليه وقالت: «فإليك... فإليك الحقيقة التالية. رغبت فيك بقدر ما كنت ترغب فيّ... وما أزال».

شعر بالدماء تتدفق كالمجنونة في عروقه: «هل أنت واثقة من ذلك؟».

- أجل... أجل، أجل.

أخذ يدها وقبلها وهو يقول: «أجل حبيبتي، أجل كارا، أرغب

فيك كثيراً».

شعر وكأن ناراً تشتعل في جسمه، فأمضيا ليلة مليئة بالشغف والحرارة حيث تاه كلٌّ منهما في عالم الآخر وذاب فيه.

وأخيراً نام كلٌّ منهما في أحضان الآخر.

ناما حتى شعرا بطرق على الباب. فهمست بري: «من عساه يكون؟».

طبع جياني قبلة على وجنتها وقال: «سأهتم بالأمر، لكن أولاً صباح الخير، كارا».

تكرر الطرق على الباب مرّة أخرى.

ابتسمت بري وقالت برقة: «لا تجب الطارق ودعه يرحل».

ضحك جياني: «من الأفضل ألا أدعه يرحل، إنه الفطور وأستطيع أن أخبرك الآن سيدتي أني أتمتع بشهية لا تضاهي».

ضحكت برقة وقالت: «أقنعتني سيدي، أنظر من الطارق».

- إن وعدتني ألا تتحركي من مكانك.

- أعدك.

وما أن خرج من الغرفة حتى قفزت بري من السرير وهرعت إلى الحمام تغتسل وتنظّف أسنانها وتمرّر أصابعها في شعرها المشعث وتنظر إلى نفسها في المرآة.

كان يفترض بها أن تكون نظرة سريعة لكن المرأة التي طالعتها في المرآة والتي تبتسم لها بدت غريبة! كانت عيناها تلمعان وبشرتها مشرقة. ولعل الأهم أنها بدت امرأة سعيدة. وشعرت بأنها امرأة... امرأة...

لف جياني ذراعيه حولها وسأل: «تظنين أنك هربت مني، أليس كذلك؟».

استدارت نحوه وهي لا تزال بين ذراعيه. حتى صوته جعلها تشعر بالسعادة وتملّكها شعور أقوى وأكثر خطورة من الرغبة جعل دقات

قلبها تتسارع بين ضلوعها.

- بري؟ ما الأمر؟

هزت رأسها إذ عجزت للحظة عن الكلام، وخبت ابتسامتها. وأبعد خصلات شعرها عن وجهها يسألها: «قولي لي ما الخطب. هل تشعرين بالندم لما جرى الليلة الماضية؟».

- كلا، بل كانت ليلة رائعة.

أظلمت عينا جياني وقال: «أجل، كانت كذلك».

أخذت نفساً عميقاً وقالت: «جياني، أردتك أن تعرف أني لم... أن ما حصل الليلة الماضية كان...».

أجابها بصوت خشن: «ولي أيضاً...».

- أحببت ما جرى الليلة الماضية، كل ما جرى بيننا. وإني أحب...».

صمتت فجأة مذهولة مما كادت تعترف به.

مرّر جياني يده فوق شعرها يسألها: «ما الذي أحببته كارا؟ قولي لي».

نظرت بري في عينيه. كانتا خضروين جداً وعميقتين جداً وإذا لم تحذر فستقع في أعماقها وتتوه فيهما إلى الأبد. أجابت بسرعة: «أحببت كل ما جرى».

أومأ لها. كان هذا ما أراد سماعه بل كل ما أراد سماعه...

أليس كذلك؟

أليس كذلك؟ فكر مجدداً وشعر فجأة أنه يكاد يفقد توازنه، فضمّ زوجته إليه مجدداً وتاه في أحضانها.

www.elromancia.com

١٢ - زواج كذبة

كان المنزل الذي استأجره جياني رائعاً.

كان جياني يراقب التفاصيل وهما يتنقلان بين الغرف الواسعة المضيئة. لقد أجرى معاملات الاستئجار من دون أن يرى المنزل، بعد أن أكد له المؤجر أن المنزل أنيق، لكنه أراد الآن أن يكون المنزل جميلاً من أجل زوجته.

قال في النهاية وهو يبذل أقصى جهده لتبدو نبرته عادية: «ما رأيك؟».

ابتسمت بري له وقالت: «إنه جميل».

لم يدرك أنه كان يحبس أنفاسه بانتظار أن يسمع رأيها.

- ماذا عنك؟ هل أعجبك.

قبّلها بحنان وقال برقة: «إن كنت سعيدة، فأنا سعيد أيضاً كارا».

وأدرك أنه لم يسبق له أن قال كلاماً بمثل هذا الصدق.

سعيدة؟

كانت بري تعلم أنّ عليها بعد ثلاثة أسابيع أن تجد كلمة أفضل للتعبير عما تشعر به. كانت تمتلىء سعادة، وفرحاً وتعيش في عالم آخر جديد. من كان ليظن أن هذا ما أرادته تماماً؟ وأنه ما بحثت عنه طوال حياتها؟

كان الجلوس في الحديقة خلف المنزل لمراقبة جياني يلعب مع الطفلة يملأ قلبها فرحاً. كان لديها طفلة تحبها ورجل تعشقه... وزواج كذبة...

ما الذي حلّ بحياتها الخالية من التعقيد؟

الزواج، الحب، الأطفال... كل هذه الأمور لامرأة أخرى وليس لها. ولم تنفك تقنع فالون بهذه الحقائق طوال الأسابيع الثلاثة الماضية. قالت لها مراراً إن الرجل الذي ستختاره سيكون مرناً، لا يعقد حياتها.

لقد أرادت علاقة آمنة حيث الخطوات متوقعة، أشبه بمركب يبحر بثبات فوق بحر هادىء.

واقتحم جياني حياتها كالعاصفة. كان متطلباً، عصبياً ويتخذ قراراته من دون الرجوع إليها. وفي علاقتهما الحميمة، لم يكن يتركها على بر الأمان بل يحملها معه على أمواج متلاطمة... وانقبض صدر برايانا..

كانت تحبه أحياناً لدرجة تجعلها تبكي. من كان ليظن أنها قد تحب رجلاً بهذه القوة التي تجعلها تبكي؟لن تدعه يعرف ذلك طبعاً. كان رجلاً طيباً، يهتم لأمرها ويريدها في سريره. وقد كان صادقاً بهذا الشأن منذ البداية حتى حين كذبت عليه وعلى نفسها بشأن رغبتها فيه.

مرّت أوقات كثيرة منذ ذلك الحين وهي تأمل أن يكون شعوره نحوها أبعد من الرغبة. فالطريقة التي يكلّمها بها والنظرات التي يرمقها بها واللمسات التي تتركها يده على شعرها كلما مرّ بقربها، لا بد أن تعني شيئاً ما.

الليلة الماضية، وأثناء تناول العشاء رفعت نظرها إليه لتجده يراقبها وفي عينيه نظرة جعلت قلبها يتوقف عن الخفقان. وفكرت في أن تسأله عن شعوره نحوها، لكنها لم تفعل. كيف لها أن تسأل؟ لطالما ظنت أنها امرأة شجاعة لكن طرح مثل هذا السؤال يتطلب أكثر من شجاعتها. ماذا لو حصلت على الإجابة الخاطئة.

لا يمكنها أن تغامر. لقد خسرت قلبها لكنها لم تفقد عقلها لتطرح مثل هذا السؤال، مع أنها كادت تطرحه الليلة الماضية حين أحس

بدموعها فسألها: «كارا؟ ما الأمر؟ لِمَ تبكين؟».

كادت تعترف، أنا أبكي لأني أحبك، لأني لا أريد أن أخسرك. كاد الاعتراف يخرج من بين شفتيها لكن لوتشيا بدأت بالبكاء.

قفزت بري من السرير لكن جياني أمسك بيدها وقال: «ابقي هنا، سأعتني أنا بالطفلة».

أجابت بإشراق مفاجىء: «لا بأس لقد توقفت».

ذهبت إلى غرفة الطفلة وأخذتها بين ذراعيها تتمنى لو أنها تتحلى بما يكفي من الشجاعة لتخبر جياني الحقيقةوتشعر بالسعادة في الوقت نفسه لأنها لم تخبره.

لقد عقدا اتفاقاً ولم يقترح تغييره. أسبوع واحد بعد يفصلهما عن العودة إلى نيويورك. سيسعيان هي وجياني إلى طلاق حضاري. ستعود هي برايانا أوكونيل وسيعيشان كجارين ويقومان بتربية لوتشيا معاً وتدّعي أنها لا تأبه لما يجري من الناحية الأخرى من الجدار الذي يفصل بينهما.

- مرحباً.

رفعت برايانا نظرها إلى جياني الذي أتى ليجلس بجانبها على العشب حاملاً الطفلة بين ذراعيه. كان النهار حاراً جداً فلم يرتدِ سوى سروالاً قصيراً. أما لوتشيا فكانت تضع حفاظاً عليه رسومات جميلة وتضحك من دون أسنان للرجل الذي تعشقه من دون أدنى شك.

وخطر لبري أنهما تحملان الشعور نفسه للرجل نفسه.

سألها جياني برقة: «هل أنت بخير؟».

- بخير. استمتع بحرارة الشمس وحسب.

انحنى فوقها يقبل كتفها وقال: «رائحتك لذيذة».

ابتسمت: «إنها رائحة كريم الشمس. هل لوتشيا بخير؟».

- نعم.

الأمومة أمر صعب.

لا، إنها وصية، وليست الأم الحقيقية للوتشيا. كما لم تكن زوجة جياني ولا المرأة التي...

- تلك النظرة مجدداً. أنت تسرحين بأفكارك بعيداً برايانا.

تمالكت بري نفسها. كانت ابتسامته حميمة وشعرت بالحرارة حتى أخمص قدميها. هل من مشهد في العالم أجمل من رجل رائع يحمل بين ذراعيه طفلة رائعة؟.

قالت بخفة: «ليس بعيداً. كنت أتساءل فقط عما سنتناوله على الغداء؟».

ابتسم جياني. والتمعت عيناه بشكل خطير ما جعل دقات قلبها تتسارع.

وقال برقة: «أعلم تماماً ما الذي سنتناوله، تعالي معي كارا».

- لكن الطفلة....

وقف على قدميه وأمسك بيدها ورفعها: «إنه موعد نومها، تعالي معي».

سمحت له برايانا بأخذها إلى الداخل. كان يعطي الأوامر بطريقة تجعلها تبدو وكأنها تمنيات.

أسدلت ستائر غرفتها بينما أخذ لوتشيا إلى غرفة نومها. وعندما عاد، اقترب منها وأخذها بين ذراعيه. فحملها إلى عالم لم تتصور أنه موجود.

لعله لا يحبها، لكنه يهتم لأمرها. لا يمكن لرجل أن يتحلّى بهذه الرقة لو لم يكن يهتم لأمر المرأة بين ذراعيه.

قالت برايانا في سرّها وهو يضمها إليه: أحبك جياني، أحبك كثيراً...

ثم أغمضت عينيها وغطت في النوم.

لامست شفتا جياني شعر برايانا. كم كان يحب رائحة شعرها ومذاقها والشعور بها بين ذراعيه.

الحقيقة البسيطة هو أنه يحبها، وإن لم يعترف لها بذلك قريباً فسيجن. لكن عليه أن يجد اللحظة المناسبة لذلك. كن صادقاً فيريللي، فقد مرّت بضع لحظات مناسبة للاعتراف لكنه تراجع بجبن.

ماذا لو نظرت إليه بعد أن يصارحها بحقيقة مشاعره وقالت له إنها لا تبادله الشعور؟

الحذر كان تجربة جديدة بالنسبة إليه. لقد سار طوال حياته وراء ما يريده من دون تردد فحصل على منحة لدخول الجامعة ونال شهادة في الحقوق في حين كان أبناء حيّه يظنون أن قوانينهم البالية هي وحدها المهمّة. وأصبح شريكاً في شركة قانونية بارزة ثم انتقل إلى مكتب المدّعي العام في حين اتهمه شركاؤه بأنه مجنون ليتخلى عمّا لديه أصلاً.

كان يضع الهدف نصب عينيه ويسعى وراءه.

لكن الوضع مختلف هنا.

كانت إرادته على المحك في الأوقات الأخرى. أما الآن فثمة أمر آخر أكثر هشاشة على المحك . . . قلبه.

كانت تلك الأسابيع الثلاثة الأفضل في حياته. لكنهما سرعان ما سيغادران عائدين إلى نيويورك. لم يكن يرغب في ذلك، وقد فكر في البقاء هنا مدّة أطول لكن قضية هامّة تنتظره وهو مجبر على المرافعة فيها.

لطالما قام بواجباته كما يجب. لقد خسر والده وهو في التاسعة من عمره وشعرت أمه بالضياع ما اضطره لدخول عالم الكبار واتخاذ القرارات الكبرى.

كره في البداية أن يكون الشخص المسؤول عن المنزل لكن المسؤولية أصبحت بعد فترة طبيعته الثانية. لم يدرك قط أن تولّي المسؤولية يعني السيطرة. . .

تنهدت برايانا في نومها ووضعت ذراعها فوق صدره فقربها منه

أكثر. لِمَ يشعر بهذا التردد في التعبير عن مشاعره؟

التردد يسبب المشاكل حين تكون واقعاً بحب امرأة عنيدة مستقلة، وهذا أقلقه.

لم يكن قلقاً من تمضية حياته كلها مع امرأة تتحداه إذ اكتشف خلال الأسابيع الثلاثة الماضية أن امرأة كتلك هي ما يحتاج إليه.

ما يزعجه هو موقف برايانا ورأيها. ماذا لو كانت تظن أنه متغطرس؟ ماذا لو قال لها، كارا، أنا أعشقك ولن أطلقك فقالت له. . .

عليه أن يكون حذراً. عليه أن ينسى: «لن أطلقك». عليه أن يقول: «لا أريد أن أطلقك»، وإلا سيعودان إلى نقطة البداية وهو لم يشأ أن يخسرها بسبب كلمات يقولها من دون انتباه.

تحركت برايانا بين ذراعيه وفتحت عينيها وابتسمت له قائلة: «هل استغرقت في النوم؟».

أومأ جياني وأجاب: «أجل. نمت بين ذراعي حيث مكانك الطبيعي».

ظهرت نظرة غريبة على وجهها وسألته: «هل هذا ما تظنه؟ أن مكاني الطبيعي هو بين ذراعيك؟».

اللعنة! لقد فعلها مجدداً! قال هذا لأنه يحبها ففهمته على أنه إثبات آخر على غروره.

- كارا، ما قصدته هو. . . .

- أعلم ما الذي قصدته.

ظن أنه أفسد الأمور بعبارة لم يقصد قولها لكنها شدّته إليها وقبلته وتاها مجدداً في أحضان بعضهما البعض.

مرّت الأيام المتبقية بسرعة ولم يبقَ أمامها سوى ليلة واحدة.

كانت غيما قد رحلت وبقي جياني وبرايانا والطفلة في البيت وحدهم. والتوتر اشتد.

أصبح الجو ثقيلاً. كانت بري مشدودة الأعصاب تماماً كجياني. كان هو يعلم سبب سوداوية مزاجه إذ لم يجد بعد الوقت المناسب والطريقة المناسبة ليخبرها أنه يحبها.

أما بري... فلم يكن يعرف سبب توتر أعصابها. الليلة الماضية بعد العشاء رفع نظره إليها ليجدها تتأمله وعلى وجهها تعبير لم يتمكن من قراءته.

سألها: «ما الأمر كارا؟».

تقلصت عضلات حلقها وكأنها تبتلع ريقها بصعوبة، لكنها قالت أخيراً: «لا شيء».

كان يعلم تماماً أنها تكذب لكن وقبل أن يتمكن من متابعة الحديث راحت الطفلة تبكي.

لوتشيا، تلك الطفلة المرحة الضحوك لم تكف عن البكاء فأخذها إلى الطبيب الذي قال إنها مصابة بالتهاب في الأذن. مرض الطفلة حرم جياني من فرصة مفاتحتها بالأمر لدرجة أنه بدأ يفكر جدياً بفتح نقاش جدي معها.

الليلة الماضية كانت رهيبة إذ قرر إما أن يتكلم الآن أو لا يفعل أبداً. عليه أن يخبر زوجته أنه يحبها ويريدها أن تظل زوجة له.

فكر جياني في أن يخرجا لتناول العشاء معاً. وعند احتساء القهوة سينظر في عيني برايانا ويضع حياته بأكملها بين يديها.

لكن برايانا لم تشأ الخروج بل أرادت تناول الطعام في المنزل. قالت: «سأقوم أنا بالطهو. إنها وجبتنا الأخيرة في النهاية».

ونظرا إلى بعضهما البعض. فقال لها: «في هذا المنزل تعنين».

- أو في أي مكان، نظراً لمهاراتي في الطهو.

كان يعلم أنها تحاول التخفيف من حدّة التوتر لكن لِمَ قالت كلاماً كهذا؟ هل كانت سعيدة لأن الشهر انقضى؟ هل كانت تتطلع إلى العودة إلى الديار وإنهاء زواجها؟ لعل البقاء في المنزل فكرة جيّدة،

فبهذه الطريقة سيكونان لوحدهما. سينتظرحتى تنام الطفلة ثم يأخذ زوجته بين ذراعيه أو يركع على ركبة واحدة ويخبرها بما في قلبه.

إنهما متزوجان لكن عرض الزواج هذه المرّة سيكون حقيقياً. سيكون إعلاناً عن حب يدوم الأبد... وسيصاب بالجنون إن اضطر للانتظار حتى وقت لاحق.

لِمَ لا يفعل ذلك الآن؟

قال: «برايانا، علينا أن نتحدث».

لا بد أن نبرته بدت ملحّة لأن بري استدارت نحوه وقد علت وجهها تعابير غريبة.

- عن ماذا؟.

كان صوتها مخنوقاً لدرجة أنه خشي فجأة أن تكون قد أدركت ما سيخبرها به ولم تشأ سماعه.

مدّ يده نحوها وقال: «كارا، تعالي واجلسي. أريد أن أخبرك...».

رنّ هاتفه الخلوي وكاد يزمجر لكنه أجاب مضطراً. فالسيدة آخر شخص يودّ التحدث إليه في الوقت الحاضر.

أصبحت السيدة زائراً شبه دائم خلال الأسبوع الأخير بحجة أنها تريد رؤية الطفلة لكنها بالكاد كانت تنظر إليها بل لاحقت نظراتها جياني وبرايانا في كل خطوة.

- سيدتي، دعيني أعاود الإتصال بك....

لكن السيدة قاطعته فتنهد وأصغى... وابتسم.

تمتمت بري تسأله: «ما الأمر؟»

لكنه هزّ رأسه، وقال عبر الهاتف: «هذا جيد، جيد جداً، أقدّر لك ذلك. شكراً لك سيدتي، سنبقى على اتصال. إلى اللقاء».

سألته بري: «ما الأمر؟».

أراد جياني أن يخبرها لكن ثمة أمر آخر عليه أن يقوله لها أولاً.

www.elromancia.com

- لاحقاً، كارا.

- الآن جياني. قالت لك شيئاً جعلك تبدو قلقاً وكأن ثمة مستجدات.

- لقد فعلت حقاً لكنني أريد إبقاء الأمر مفاجأة. بري هل أنت واثقة من أنك لا تريدين الخروج لتناول العشاء؟

كانت تلك مفاجأة تستحق الاحتفال ولكن...

ألم يكن يرغب في قضاء ليلتهما الأخيرة لوحدهما في المنزل الذي بدا أشبه بمنزلهما الحقيقي.

أجابت بجفاء: «إن أردت الخروج، نستطيع ذلك».

- كلا، لا بأس بالبقاء في المنزل. أعني لا بأس إن لم نخرج. أعني أنه ليس منزلنا حقاً. أقصد بيتنا الزوجي الحقيقي، أعني....

استدارت تبتعد عنه وقالت: «أعلم ما الذي تعنيه».

نظر إلى ظهرها المتصلب. أراد أن يضمها بين ذراعيه، أن يخبرها أنه يشعر بالتوتر لأنه سيطلب منها أن تبقى متزوجة منه، وأن السيدة أطلعته على أخبار جيدة. لكن من الأفضل أن ينتظر فالطفلة ستنام وسيكونان لوحدهما...

تنحنح جياني ورفع لوتشيا من الكرسي قائلاً: «سآخذ الطفلة إلى سريرها بينما تحضرين أنت الشاي، اتفقنا؟».

انتظرت برايانا حتى خرج من المطبخ وجلست إلى الطاولة إذ لم تكن واثقة من أن قدميها قد تحملانها أكثر.

كانت في حالة يرثى لها. فإما الآن أو أبداً.

اتخذت بري قراراً هاماً، قررت إخباره بحقيقة شعورها.

حسناً، لن تخبره بالحقيقة كاملة. قد تقول له إنها تريد أن يبقيا متزوجين لفترة قصيرة بعد، إن أراد ذلك. إن ردّ بالايجاب وظهرت ابتسامة دافئة على ثغره، وإن أتى إليها وقبلها بالحنان ذاته حين أوقظها في غرفة السيدة ماسيني فقد تستجمع شجاعتها وتعترف أنها وقعت في

حبه.

لكن شيئاً ما حصل. ذاك الإتصال من السيدة... ما الأمر يا ترى؟ قال جياني إنه مفاجأة. هل يجدر بها أن تغيّر خططها؟

كلا، كلا... لن تفعل. إنها المرّة الأولى التي تفهم فيها معنى المراهنة. ليس لديها ما تخسره أو تربحه.

أعدت المائدة على الشرفة. وفي منتصف الوجبة ظهرت غيوم سوداء في المساء وأمطرت بغزارة.

ارتعشت بري في حين ضحك جياني فقاما بجمع الأغراض وهرعا إلى الداخل. ساهم المطر على الأقل بكسر الصمت المخيّم عليهما.

- هل أنت مبللة كارا؟ أتودين تبديل ملابسك؟.

تبدل ملابسها وتؤجل الموضوع أكثر؟

- أنا بخير.

- جيد، سأعدّ المائدة في غرفة الطعام.

حملت بري طبق الدجاج والفطر الذي سبق وأعدّته مئات المرات من قبل. قال جياني بشجاعة: «إنه لذيذ».

وضعت بري الشوكة من يدها وقالت: «بل إنه مقرف».

لم تكن الأمور تسير كما يجب. قالت اسمه في اللحظة ذاتها التي نطق بها باسمها.

وتلاقت نظراتهما. وضع الشوكة على الصحن أمامه وجمع قبضتي يديه مسنداً مرفقيه إلى الطاولة المغطاة بالشرشف الأبيض. كانت عضلة فكه تنتفض توتراً.

شعرت بري بقلبها يقع أرضاً، بدا وكأنه رجل مقبل على إجراء عملية خطيرة.

قالت: «تكلم أنت أولاً».

- لا بل قولي ما لديك أنتِ أولاً.

- أفضّل أن أنتظرك.

www.elromancia.com

أومأ وتنحنح ودفع بالكرسي إلى الوراء يريد الوقوف على قدميه لكنه غيّر رأيه وعاد يجلس من جديد. كانت يداه لا تزالان متشابكتين وتلك العضلة في فكه ترتعش.

تمتم يقول: «اللعنة. برايانا».

- أجل.

- لدي... لدي ما أود أن أخبرك به منذ أيام.

تسارعت دقات قلبها وهي تقول: «تفضل».

- دعيني أخبرك عن اتصال السيّدة ماسيني أولاً.

كان ذاك الخبر الأبسط في الحديث وقال: «يبدو أن السيدة تفكر بمستقبل لوتشيا. وقد عرضت أن توقع الأوراق التي تحول دون مطالبتها بلوتشيا من جديد».

كانت تلك أخباراً رائعة لكن ليس ما تود بري سماعه.

ابتسم ابتسامة متوترة وأضاف: «كما أشارت إلى أن مهلة الثلاثين يوماً انتهت فأكدت لها أننا نعي ذلك تماماً».

أومأت بري من دون أن تتكلم لأنها لم تعد تثق بصوتها.

توقف عن الكلام قليلاً وقال: «عرضها هذا يبسّط الأمور ويعني أن لوتشيا يمكن أن تصبح لنا فعلاً».

- لا أفهم ما الذي تقصده بلنا.

تردد وقال: «حسناً، أجل. لكن من الممكن أن تظهر بعض التعقيدات بسبب طلاقنا».

سقط قلب بري على الأرض بين قدميها وكررت كلامه: «طلاقنا».

مال جياني نحوها وأخذ يدها بيده: «تماماً. لست واثقاً كيف يمكن للمحكمة أن تصدر حكماً يمنحنا الوصاية على لوتشيا بعد أن نحلّ زواجنا».

كرّرت كببغاء: «نحلّ زواجنا».

ابتلع جياني ريقه بصعوبة، فالأمور لا تسير على ما يرام. التحدث

إلى القضاة أسهل من فتح قلبك للمرأة التي تحب. لِمَ تنظر إليه على هذا النحو؟ لم يستطع أن يحدّد ما إذا كانت غاضبة أم حزينة أم سعيدة. يا الله كم أرادها أن تكون سعيدة!

- كل ما استطعت التوصل إليه هو أننا يجب أن نبقى متزوجين لفترة أطول وهذا ليس ما اتفقنا عليه.

قالت بري بهدوء: «كلا هذا ليس ما اتفقنا عليه».

أخذ جياني نفساً عميقاً. سواء كان جاهزاً أم لا، حان وقت الحقيقة. وقال: «السيدة لن تقف في طريقنا، وما من نزاع قانوني بانتظارنا كارا. ما من حاجة لأن أطلب منك تمديد اتفاقنا. يمكننا أن نعود إلى الديار ونكون معاً ببساطة».

- تقصد أن نلغي اتفاقنا ونظل مع ذلك نعيش كمتزوجين.

بدا جياني مذهولاً وهو يقول: «حسناً، بالطبع، لكن...».

- كلا.

- عذراً؟.

وسحبت يدها من يده لتضيف: «قلت لن نعود إلى هذه القصة الخيالية التي اخترعت».

- برايانا إسمعيني.

دفعت برايانا بكرسيها إلى الوراء ووقفت قائلة: «لقد سمعتك وأنت محق. الأخبار الجيدة هي أننا لسنا مضطرين لتمديد الاتفاق».

- لا، كلا لن نفعل، لأن....

- لا تقل لي ذلك مجدداً.

هبّ جياني ووقف على قدميه. ما الذي يحصل بحق السماء؟ أخبر زوجته أن لوتشيا ستصبح لهما وأنهما يستطيعان أن يتبنياها ليكونا والديها الحقيقيين. أخبرها الآن أنه لا يريد طلاقاً، وهي تنظر إليه وكأنها تريد أن تقتله.

استطاع أن يشعر بأعصابه تتوتر وجاهد ليسيطر عليها وهو يسأل:

www.elromancia.com

«ما خطبك؟ ألا تريدين لوتشيا؟ ألا تريدين أن تكوني معي؟».

- أريد أن أكون مع لوتشيا. ولا أريد أن أكون معك.

ضاقت عيناه: «لكني ظننت طوال تلك الأسابيع، تلك اللحظات الحميمة التي عشناها معاً...».

- أعلم ما ظننته. ظننت أن اتفاقنا على الورق سينتهي أما حياتنا كزوجين فلا.

- هلا نسيت ذاك الاتفاق اللعين؟.

- كفّ عن الصراخ.

ضرب الطاولة بقبضته وصاح: «لست أصرخ بل أتحدث بشكل منطقي أكثر منك».

- أنا من يتحدث بشكل منطقي. لكنك لا تحب ما أقول وحسب.

- ممّ أنت غاضبة إلى هذا الحدّ بحق السماء؟.

- إن طرحت مثل هذا السؤال فهذا يعني أن ما من جدوى من أن أحاول أن أشرح لك.

ضحك جياني بعصبية ومرّر يده في شعره ثم رفع ناظريه إلى الأعلى قائلاً: «إنها مجنونة، مجنونة بالكامل!».

- تقصد أني كنت مجنونة. أما الآن فأنا عاقلة بالكامل.

زمجر قائلاً: «اللعنة! تباً لك بري».

بدأت لوتشيا تبكي، فقالت بري: «أنظر ماذا فعلت. لقد أيقظت الطفلة!».

لم تشأ البقاء متزوجة منه. إنها لا تحبه. كلا! لا يمكن... لا يسعه أن يصدق ذلك. أخذ نفساً عميقاً وقال بحذر: «بري، برايانا. علينا أن نتحدث».

- هذا ما فعلناه للتو. لقد انتهى الأمر.

- تباً لك بري....

- سبق أن قلت ذلك.

قال بنبرة خشنة تحذيرية: «برايانا. أمنعك من فعل ذلك».

أخذت برايانا تقهقه عالياً وقالت: «أنت لا تفهم يا فيريللي. أنا لا أتلقى الأوامر».

وتجاوزته مسرعة بينما حاول أن يستوعب ما حصل وسمع باب غرفة الصغيرة يصفق وراءها ليقفل بعدئذ.

www.elromancia.com

١٣ - عودة إلى الجذور

حتى أنه لم يلحق بها. سمعت بري صوت الباب الرئيسي يغلق ومحرّك السيارة يهدر في الممر.

جيد! إن تحركت بما يكفي من السرعة فلن تضطر لرؤيته إلا بعد حصول الطلاق.

كانت الطفلة لا تزال تبكي فرفعتها بري من مهدها ووضعتها على صدرها. وأخذت تهدهدها قائلة، «لا تبكي حبيبتي. ستكون الأمور على ما يرام».

تحوّل بكاء الطفلة إلى تنهدات، فقبّلت بري جبينها قبل أن تعيدها إلى سريرها. وهمست تقول لها: «أنت وأنا سنذهب في رحلة. ألن يكون ذلك ممتعاً؟».

أطلقت لوتشيا تنهيدة أخيرة قبل أن تلامس رموشها الرطبة وجنتيها المنتفختين. وقبلتها بري مجدداً ثم توجهت إلى الغرفة الرئيسية.

الغرفة التي يشاركها فيها جياني.

ذاك السافل الأرستقراطي الأناني!

لم تحبه قط ولو للحظة واحدة. لم يكن ما جمعهما سوى رغبة حسّية.

فتحت بري الخزانة، ووضعت الحقيبة على السرير ثم فتحت الأدراج بقوة بحيث كادت تقع على الأرض.

لطالما اتهمتها فالون بأنها لم تعش الشغف الحقيقي يوماً. حسناً ها قد فعلت واللعنة على ذلك.

الحب ليس سوى كذبة يقنع بها الرجال النساء من أجل إغوائهن. رمت بري الملابس في الحقيبة.

لقد عاشت حياة بأكملها في غضون شهر واحد، بدءاً بموت كارين وصولاً إلى الوصاية على الطفلة وجياني الذي شق طريقه إلى عالمها وأدارها كيفما شاء وقادها إلى زمن آخر ليتوّج ذلك كله بزواج مزيف...

لقد خرجت من تلك الدوامة بأمر واحد جميل وهو لوتشيا. ركعت بري عند حافة السرير تفكر في تلك السنوات من التنقل من عمل إلى آخر ومن مكان إلى آخر تبحث عن شيء لا تعرف ما هو. لكن ها هو الآن ملفوف برداء زهري.

من كان ليصدّق أنها قد تجد كل هذه المتعة في لعب دور الأم لهذه الطفلة الصغيرة؟ لم تكن أمها الحقيقية. كانت تعلم ذلك، لكنها بدت أمها الفعلية لفترة من الزمن. كانوا كعائلة هي وجياني والطفلة.

اغرورقت عيناها بالدموع من دون أن تتمكن من معرفة السبب فلطالما عرفت أن اتفاقها مع جياني ليس دائماً. وإن كانت قد تعلقت بأمل يائس فالذنب ذنبها هي وحدها. ما شعرت به حيال لوتشيا كان الحب الوحيد الذي يحمل معنى. أخذت بري نفساً عميقاً مرتجفاً. ماذا سيحصل الآن؟.

منذ دقائق فقط كانت مليئة بالطاقة. لكن جلّ ما أرادته الآن هو أن تتكور وتتقوقع على نفسها وتنام. كلا، لن تفعل ذلك. ففكرة النوم تحت السقف ذاته مع جياني جعلتها ترتعد. والصعود على متن الطائرة ذاتها معه ومرافقته إلى الشقة التي اختارها لها وللوتشيا أسوأ.

لم تكن ملكاً له. ولا يمكن أن يملي عليها ما الذي تفعله... ليست مضطرة للعيش بجواره فتراقبه يمضي في حياته وكأن هذا الشهر لم يكن.

ما قالته له صحيح. لم يكونا مضطرين للعيش جنباً إلى جنب،

ليسا مضطرين للعيش في الولاية ذاتها حتى. فالثنائي المطلق هذا إذا كان متزوجاً حقاً، يتشارك حضانة الطفل فيما كل من الوالدين يعيش في جهة مختلفة من العالم. فلِمَ يجب أن تكون حالتهما مختلفة؟ لِمَ لم يخطر لها الأمر من قبل؟

حان الوقت لتستعيد زمام أمور حياتها.

حسناً، إنها تحتاج لخطة سريعة. أولها هو الخروج من هنا قبل وصول جياني. كانت تعلم أنها لن تستطيع ضبط أعصابها، ولم تشأ أن يرى غضبها.

لم يكن يستحق ذلك.

الرحيل سهل. جلّ ما عليها فعله هو توضيب بعض الأغراض للطفلة إذ لن تترك لوتشيا هنا. وستتصل بسيارة أجرة وتطلب من السائق اصطحابها...

إلى أين؟

الخيار الأسهل هو منزل أختها الواقع في الجهة الأخرى من الجزيرة. لقد أحسنت صنعاً حين لم تتواصل مع فالون. كيف يمكنها أن تشرح لها مسألة الزواج الذي لم يكن بزواج؟ كيف ستفعل ذلك الآن، افترضت أنه...

كلا. تلك الخطة لن تنجح. لن تهرب من جياني إلى منزل صديقه. عضت بري شفتها.

يمكنها العودة إلى نيويورك والعيش في شقتها... لتجد جياني على عتبة منزلها يطالبها بالموافقة على الخطة التي وضعها لحياتها.

فلم يحبها جياني أبداً. أما هي... هي...

ابتلعت بري ريقها بصعوبة. هي أيضاً لم تحبه أبداً.

كانت بحاجة لشاطىء أمان، إلى مكان لا يسلمها أحد فيه إلى جياني قبل أن تصبح مستعدة للتعامل مع الأمر. بعد الطلاق، ستتمكن من لقاء جياني ومناقشة تفاصيل حياة لوتشيا معه.

لم يبقَ سوى خيار واحد. لاس فيغاس، موطنها لفترة طويلة من حياتها.

لكن ثمة ناحية سلبية واحدة في هذا الخيار: لن تكون مواجهة أمها ممتعة، لكن نظرة واحدة إلى لوتشيا كفيلة بإذابة قلب أمها ماري.

جلّ ما عليها فعله هو إخبار زوج أمها أنها لا تريد أن يقترب جياني منها وهو سيتكفل بالباقي. فليحاول السيد فيريللي تجاوز الفريق الذي تؤلفه عائلتها.

اتخذت بري قرارها فوضبت حقيبتها سريعاً وملأت حقيبة أخرى بأغراض الطفلة. اتصلت بالمطار وحجزت ثم طلبت سيارة أجرة. الأمر الوحيد المتبقي هو أن تترك رسالة لجياني. كانت على يقين من أنه سيسرّ حين يعود ولا يجدها لكنه سيأسف لرحيل لوتشيا.

تناولت بري قلماً وورقة ودوّنت: «لوتشيا معي، سأتصل بك حين أضع صيغة نهائية لمخططاتي».

قرأت الرسالة بصوت مرتفع فأعجبتها إذ كانت مباشرة ومحدّدة. وضعت الرسالة على الطاولة في الغرفة الرئيسية في اللحظة التي وصلت فيها سيارة إلى المدخل. هل هذا جياني؟ هل عاد ليخبرها... ليقول لها...

انطلق بوق السيارة فزفرت بري.

فتحت الباب وصرخت بأعلى صوتها: «لحظة واحدة».

بعدئذ، أخذت الطفلة بين ذراعيها وحملت الأغراض وأغلقت الباب على أربعة أسابيع من الجنون المطبق.

اتصلت بري بأمها من المطار، وقالت بإشراق: «مرحباً، هل تستقبلون الزوار؟».

- سيكون ذلك رائعاً حبيبتي، متى؟.

ترددت بري قبل أن تقول: «الآن، ما رأيك بذلك؟».

- يسرنا أن نستقبلك. ستكون تلك مفاجأة رائعة.

www.elromancia.com

قالت بري بتردد: «في الواقع، لدي مفاجأة أخرى أمي».

أرادت أن تكون حذرة في كلامها إذ نجت أمها من ذبحة قلبية منذ بضعة أشهر مضت فقط وأخيراً قالت: «لدي رفيق».

ما أن نطقت بهذه الكلمات حتى أدركت أنها قالت الجملة بشكل خاطىء.

- يسرني سماع ذلك. ما اسمه؟.

- ليس رجلاً أمي، بل طفلة!

أغمضت بري عينيها. كانت منهكة كما أنها تشعر بالجوع واليأس. لكنها لم تعرف لما هي يائسة، فقد انتهى شهر الجحيم. ما الذي يصيبها بالاكتئاب؟ وقالت بقلق: «إنها طفلة أمي. ربما يسهل شرح الأمر أكثر حين نلتقي».

- قولي لي أمراً واحداً فقط بري. هل الطفلة ابنتك؟.

تنهدت بري وقالت: «كلا ونعم. إنها ابنتي قانونياً لكن إن كنت تسألين عما إذا كنت أمها الحقيقية فلا».

قالت ماري والقليل من الخيبة في صوتها: «في هذه الحالة، أفترض أن ما من رجل في حياتك».

ووجدتها بانتظارها. بدت أمها جميلة وبصحة جيدة فيما ابتسم زوج أمها المجعد الوجه لها مرحّباً. عانقت ماري بري ونظرت إلى لوتشيا ثم تنهدت بابتهاج قائلة: «يا إلهي، ما اسمك يا صغيرة؟».

- اسمها لوتشيا. أتذكرين صديقتي كارين؟ رافقتني إلى هنا في عطلة الربيع أثناء السنة الدراسية الثانية.

- أذكرها طبعاً.

- تعرّضت كارين وزوجها لحادث سير مروّع، لم ينجوا منه. وتبين لحقاً أنهما عيّناني وصية على ابنتهما.

من المذهل كم يسهل إخبار القصة عند إغفال القسم المتعلق بجياني. يمكن إخبارها بذلك لاحقاً.

بهتت ابتسامة ماري وقالت برقة: «يا له من أمر محزن! أحسنت كارين الاختيار بتسميتك وصية على ابنتها».

طرفت بري بعينيها. لطالما ظنت أن أمها تعتبرها غجرية لا تهدأ في مكان. وسألتها: «هل تعتقدين ذلك؟».

- بالطبع حبيبتي، فلديك أكبر قلب في العالم.

ابتسمت ماري مجدداً ومدّت ذراعيها قائلة: «مرحباً لوسي. تعالي إلى جدتك».

- لكنها ليست....

أرادت بري أن تقول إنها ليست ابنتها فعلاً، لكن الحقيقة أن لوتشيا ابنتها التي تحبها من قلبها.

جياني أيضاً عاملها وكأنها ابنته من لحمه ودمه. لو أنها هي وجياني... لو أن زواجهما...

كانت ابتسامة ماري قد اختفت كلياً وهي تسأل: «بري؟».

وسلّمت الطفلة لدان ثم توجهت نحو برايانا تسألها: «ما الأمر ابنتي؟».

هزت بري رأسها فهي لم تكن معتادة على أن تثقل كاهل ماري بمشاكلها.

قالت ماري برقة: «حبيبتي، أرجوك قولي لي ما الأمر؟ تبدين مكسورة القلب».

أجهشت برايانا بالبكاء وهرعت إلى ذراعي أمها قائلة: «أنا فعلاً كذلك».

كانت ماري رائعة إذ لم تطرح عليها أي أسئلة ولم تلقِ أي محاضرة، بل قالت لبري: «هذا شاي بالأعشاب ليساعدك على الاسترخاء».

وتركتها لتتحقق من طبق ما في الفرن تبدو رائحته لذيذة.

أدركت بري أنها طرحت السؤال بصوت عالٍ حين أجابتها ماري:

www.elromancia.com

«إنه طبق الضأن المفضل لدى دان».

أخذت بري رشفة من الشاي وهي تقول: «أما أبي فكان يفضل شرائح اللحم المقدّدة المطهوة».

ابتسمت ماري: «أرى أنك ما زالت تذكرين ذلك».

- كيف لي أن أنسى وقد كنت تحضرين ذاك الطبق مرّة في الأسبوع.

- كنت أعدّ ذاك الطبق لأن أباك يحبه ورقائق الكعك بالشوكولا لك والبودينغ بالفانيل لشين... إنها لمتعة أن تحضري أطباقاً للناس الذين تحبين.

وضعت بري الفنجان من يدها وقالت: «ألهذا السبب لم تعترضي حين اقتلعك أبي من حيث تتمين وجرّك إلى مكان جديد؟».

لم تتوقع أن تطرح مثل هذا السؤال لكنها شعرت بالسعادة لأنها طرحته. تجمّدت يدا أمها للحظة قبل أن تعود لتبتسم وتقول لابنتها: «لم يقتلعني يا برايانا ولم يجرّني، كيف خطرت لك تلك الفكرة؟».

- بدا ذلك واضحاً على وجهك. كلما انتقلنا كانت علامات الانزعاج تظهر على ملامحك.

هزّت ماري رأسها وقالت: «علامات الانزعاج! إن كان هذا ماظننته، فأنت مخطئة. أعترف أن الأمر لم يكن سهلاً لكني كنت أدرك أن والدك بحاجة للسعي وراء حلمه».

- فهمت.

قالت ماري برقة: «كلا لم تفهمي. هيا بري، قولي لي، ماذا يدور في رأسك؟».

رفعت بري نظرها إليها لتطرح السؤال الذي لطالما رغبت في طرحه: «وأنت أمي، ماذا عن أحلامك؟».

- أبوك كان حلمي برايانا. وقبل أن تقولي ما وددت قوله منذ سنوات وهو أني سمحت له بالتحكم بحياتي....

- لكني لم أقل يوماً....

مدّت ماري يدها تمسك بيد ابنتها: «ما كان عليك أن تفعلي حبيبتي، كنت شفافة كالزجاج. كان هو حلم حياتي تماماً كما كنت أنا حلم حياته».

- أنا لا أقول إنه لم يكن يحبك.

ظهرت ابتسامة على ثغر ماري لكن نبرتها كانت حديدية وهي تقول: «من الأفضل ألا تفعلي. أبوك كان مغامراً، وكذلك أنا. لقد تخليت عن الحياة الروتينية الهادئة لصالح أخرى مشوقة لا يمكن توقّع أحداثها ولحقت بالرجل الذي أحب. إن كنت تظنين هذا ضعفاً برايانا، أن تحبي شخصاً لدرجة أن ترافقيه من دون أن تسألي عن الوجهة فأنت لم تقعي في الحب بعد، في الحب الحقيقي».

قالت لها فالون الكلام نفسه منذ بضعة أسابيع فقط. فهل أمها وأختها على حق؟ هل رأت شغفها بجياني على أنه علامة ضعف؟ ما تشعر به تجاهه يرعبها.

- بري؟ حبيبتي، لقد وقعت في الحب، أليس كذلك؟ يمكنني أن أرى ذلك في عينيك.

انهمرت الدموع فجأة على وجه برايانا وقالت بصوت متقطع: «فات الأوان. كان هو حلمي لكني لم أكن حلم حياته».

بحثت ماري في جيبها عن منديل وأعطته لبري قائلة: «حبيبتي جففي عينيك، وأخبريني بكل شيء».

أخذت بري تروي الأحداث من البداية ولم تغفل تفصيلاً واحداً كما لم تحتفظ بأي سرّ لنفسها. وأخبرتها بمدى حبها لجياني وكم تتوق لاستعادة ذاك الحب وكم تتلهف ليعشقها كما تعشقه وتتشوق لاتمام العهود التي تلفظا بها يوم الزفاف.

نظرت إلى أمها بعينين مبللتين بالدموع لامعتين بالتحدي وقالت: «أريد أن أبقى معه طوال حياتي لكنه لا يريد ذلك. لن أكون شخصاً

يرميه حين يتعب منه».

- هل أنت واثقة من أن هذا ما يشعر به حيالك برايانا؟ هل تحدثت إليه؟.

أجابت بري بصوت متقطع: «أخبرني أنه ليس علي أن أقلق بشأن أي معارك قضائية مع جدّة لوتشيا العظيمة، وقال إن زواجنا المزيف ليس بمشكلة. إنه يريد طلاقاً اتفقنا عليه يوم تزوجنا. سأمنحه إياه ثم أنتقل بعيداً، بعيداً، بما يضمن عدم رؤيته لي أو رؤيتي له مجدداً فيما عدا ما يتعلق بلوتشيا...».

قاطعها صوت ذكوري غاضب من ورائها: «وكيف تنوين فعل ذلك بالضبط في حين أني لن أسمح بذلك؟».

اتسعت عينا برايانا ونظرت الأم من فوق كتفها وقد تحوّلت ملامحها من قلقة إلى فضولية.

- أجيبيني برايانا. كيف ستطلقين من دون موافقتي؟

وقفت بري وأخذت نفساً عميقاً ثم استدارت. كان جياني يقف في الغرفة وعلى وجهه ملامح الغضب. كان بالأحرى مثالاً للغضب.

أحسّت بدقات قلبها الأحمق تتسارع، ثم تذكرت أنه الرجل الذي يريد السيطرة على المرأة. رجل يُريد من المرأة كل شيء إلا حبها. وكانت تعلم أنها لن تدعه، أنها يجب ألا تدعه يرى إلى أي مدى يؤذيها ذلك.

رفعت بري ذقنها تسأله: «ما الذي تفعله هنا جياني؟ أخبرتك أني سأتصل بك».

أجاب ببرود: «حالما تنتهين من وضع خططك. نعم، وجدت أنها عبارة رائعة تتركها زوجة لزوجها».

قاطعته بري بحدّة: «كف عن ذلك، أنا لست زوجتك».

- لدي وثيقة زواج تثبت أنك كذلك.

- إنها مجرد ورقة.

- ورقة رسمية. أحضري أغراضك برايانا، فأنا متعب وجائع وغاضب، وأرفض مناقشة قرار اتخذته.

حدّقت فيه بري فلاحظت أنه متعب فعلاً، إذ ظهرت ظلال قاتمة تحت عينيه. وأرادت أن تهرع إليه وتخفي بقبلاتها تلك الظلال.

هل هي مجنونة؟ من يأبه إن كان لديه ظلال تحت عينيه؟

لِمَ تفكر فيه على أنه زوجها؟ لن يكون كذلك بعد أسابيع قليلة فقط.

- ما من شيء نناقشه.

نظر جياني في ساعة يده وقال: «سأمنحك خمس دقائق. بعدئذ، سآخذ لوتشيا تحت ذراع وأنت تحت الذراع الأخرى وأرحل بكما».

- من فضلك! الأسلوب الصقلي لن يجدي نفعاً هنا.

تقدم منها خطوة فشعرت بنظراته تكاد تحرقها: «هل ظننت فعلاً أنك تستطيعين الهرب مني كارا؟ هل ظننت حقاً أني لن ألحق بك؟».

- لا أسمح لك بأن تناديني كارا! ما خطبك يا سيّد؟ هل جرحت مشاعرك؟ هل أنت من يرحل دوماً؟.

- ما الذي تتحدثين عنه بحق السماء؟.

- لا تقل لي إنك لا تفهم قصدي فيريللي! تعلم عمّا أتحدث. أنت هو الرجل. وأنت من يرحل ويترك المرأة وليس أنا.

ثنى جياني ذراعيه على صدره لئلا يمسك بريانا من كتفيها ويهزها حتى تعترف بأنها تحبه وتريده لأنها... لأنها يجب أن تشعر بما يشعر به وإلا سيجن. قال بتوجم: «لا يمكنك تركي، ليس من دون موافقتي».

قلّدته بري في وقفته وقالت: «أهلاً بك في عالم الوقع سيدي. نحن هنا في الولايات المتحدة ولسنا في صقلية. يمكنني أن أطلقك وسأطلقك ولا تستطيع منعي».

ابتسم وقال: «لكني أستطيع كارا، فزواجنا تمّ في إيطاليا».

www.elromancia.com

- ماذا يعني هذا؟.

خرجت الكذبة حلوة من بين شفتيه كالسكر: «يعني أنه لا يمكن فسخه إلا في إيطاليا».

ارتدّت بري إلى الوراء وسألت: «ماذا؟».

- قلت....

- سمعت ما قلته ولا أصدقك، فأنت من قال لي إني أستطيع أن أنجز معاملات الطلاق من المكسيك أو من الكاريبي، أتذكر؟.

صحيح، لقد تذكر ذلك. كان إخبارها عملاً غبياً، لكنه قال ذلك قبل أن يغرم حتى أذنيه بهذه المرأة العنيدة، القوية المستقلة المتمردة الرائعة.

- كنت مخطئاً.

أرجعت بري رأسها إلى الوراء وقالت: «الإمبراطور العظيم مخطىء! هذا مستحيل!».

قال برقة: «ما من طلاق كارا. أنت وطفلتنا ستأتيان معي».

طفلتنا. كانت الكلمة في مكانها تماماً. لو أنه يعنيها فعلاً!

- كلا، لن آتي معك جياني ولن أعيش كما خططت أنت.

كرهت بري الضعف في صوتها وشعرت بالدموع تحرق عينيها مجدداً. وقالت له: «أعلم أنك ستكون وصياً جيداً على لوتشيا. لم أقصد ما قلته حول عيشي في مكان بعيد لكنني لن أعيش بجوارك، ولن أشاركك حياتك...».

- لن تعيشي بجواري، بل ستعيشين معي لأنك زوجتي وقلبي ولن أتخلى عنك برايانا، أبداً.

ساد الصمت في المطبخ قبل أن تتنحنح ماري وتقول لزوجها الذي وقف يراقب المشهد مستعداً للتدخّل لمصلحة بري: «دان؟ إنه التوقيت المثالي لتريني المكان الذي يحتاج لإعادة ترتيب!».

قال دان غير مصدّق: «الآن؟ تعنين حالاً؟».

ردّت ماري بحزم: «حالاً».

تجاوزت برايانا بعد أن توقفت للحظة بجانبها لتهمس شيئاً ما في أذنيها ثم قالت بنعومة: «حظاً موفقاً، سيد فيريللي».

أجابها وعيناه لا تفارقان بري: «نادني جياني».

ابتسمت وأجابت: «أنت محق، فالأقرباء يجب ألاّ ينادوا بعضهم بشكل رسمي».

قالت برايانا، «أقرباء؟ أمي...».

لكن أمها كانت قد تأبطت ذراع زوجها وخرجا من الغرفة. وسمعت الباب يغلق وراءها.

كان جياني وبرايانا وحدهما.

اقترب جياني منها وتراجعت برايانا خطوة إلى الوراء لكن ما من مكان تهرب إليه، فالطاولة وراءها وزوجها أمامها. لكنه لم يكن زوجها، لم يشأ أن يكون زوجها.

قال لها برقة: «لا تستطيعين أن تطلقيني كارا».

- بالطبع أستطيع. هذا هو اتفاقنا، أتذكر؟.

أرادت بري أن تبدو مصممة قويّة لكنها بدت مكسورة القلب. لن تسمح له بأن يرى مدى ضعفها. لا يمكنها ذلك!.

كانت نظراته مركّزة على شفتيها فهمس وهو يحضن وجهها بين يديه برقة: «أتذكر كل شيء...».

- جياني، لا تفعل.

- لمَ لا؟ فأنت لي. وإن أردت معانقتك، أستطيع ذلك.

- أنا لست لك ولست لأي كان. أنا....

- أنت محقة، أنت ملك لنفسك برايانا ولهذا السبب أنا أحبك كثيراً.

ضمها إليه فوجدها متصلبة لكن ما أن طوّقها بذراعيه حتى أصدرت تنهيدة خافتة من بين شفتيها.

www.elromancia.com

وضع يده تحت ذقنها وقال لها: «كارا، أنظري إلي. أريد أن أرى قلبك وروحك في عينيك. قلت إنك تريدين الطلاق وأنا صدّقتك، لكني كنت أحمق. فالمرأة التي ترتجف بين ذراعي الرجل، وتعطيه كل ما لديها ليست امرأة تريد تركه».

- كلا، لا أعلم لماذا تظن....

وكافحت بري لعدم الاستسلام لكنها فعلت في النهاية. ورفعت يديها إلى صدره.

- أنا أحبك بري وأنت تحبينني.

- كلا جياني أنا لا أحبك. لا أعلم لما تظن....

قبلها مجدداً وارتجفت مجدداً بين يديه فقال لها: «لطالما تحدّثت عن التعقيدات. لكن لا يمكن لشيء أن يكون أكثر تعقيداً مما حدث ليلة أردت إخبارك... ليلة استجمعت ما يكفي من القوة والشجاعة لأقول إني أريد أن يكون زواجنا حقيقياً».

- ماذا؟.

حضن وجهها بين يديه وقال: «لقد أفسدت الأمر بري. احتجت ساعات لأدرك إلى أي مدى أفسدت الأمور. أردت أن تكون الأمور مثالية كارا، أن أخبرك كم أحبك، وأقول لك إن السيدة قد وافقت على أن نتبنى طفلتنا الصغيرة...».

اتسعت عينا بري وهمست: «آه، جياني. هل قلت ذلك فعلاً؟».

أوماً: «وأنت أخبرتني أنك لا تستطيعين الانتظار لتتركيني».

- آه، كلا، لم أقل لك ذلك مطلقاً....

- لم تفعلي كارا. وقد أدركت ذلك بعد أن هدأت.

قرّبها جياني إليه وقبّلها مجدداً برقة وحنان، قبلة رقيقة هدّدت بإذابة عظامها ثم ابتسم وأكمل: «أسأت فهمي ولم تسمح لك كبريائك سوى أن تجيبي كما فعلت. كنت رائعة، قوية، شجاعة... لكنك كدت تفطرين قلبي».

طوقت برايانا عنق زوجها بذراعيها، وقالت برقة: «ظننت أن وقوعي في غرامك ضعف، لكني كنت مخطئة. حبك هو قوتي جياني. حبك هو ما خلقت لأجله. إنه...».

- إنه كل شيء كارا. أعلم هذا لأن الأمر مماثل بالنسبة إلي أيضاً....

ابتسم كل منهما للآخر، رجل وامرأة أمضيا حياتهما يبحثان عن بعضهما البعض. وسمعا صوت طفل يبكي فقال جياني: «الوتشيا؟».

- أمي تسميها لوسي.

ضحك جياني: «يبدو لي اسماً أميركياً جيداً».

تبادلا قبلة أخرى قبل أن يلف جياني ذراعه حول خصر زوجته ويتوجها للبحث عن ابنتهما.

نزلا الدرج إلى المكتب حيث نظر دان إلى زوجته يحاول أن يتصور ما الذي يحصل: «لا أفهم ما يحصل حبيبتي. تأتينا بري وهي تحمل طفلاً بين ذراعيها، تخبرنا أنها متزوجة وأنها تريد الطلاق، ثم يظهر الرجل ونتركهما معاً. أفترض أنك تعلمين ماذا تفعلين».

ربتت ماري على يد زوجهاوقالت:

- ما أفعله حبيبي هو أني أخطط لحفل زفاف. أنا واثقة من أن برايانا وجياني يريدان حفل زفاف حقيقياً بعد أن توضّحت الأمور.

سأل دان بذهول: «ما الذي توضح؟».

أجابت ماري برقة: «كل شيء، نحن لدينا بعضنا وأولادنا متزوجون وسعداء. ماذا يمكن لامرأة أن تطلب أكثر؟».

انحنى دان وقبل زوجته على وجنتها، ثم قال بحنان: «ماذا يمكن للمرء أن يطلب أكثر من الحب الحقيقي؟».